

رسام الملكة

رواية

صديق الحلو

إستهلال

"إن كنت تظن أنك قادر على العيش دون كتابة فلا
تكتب"

ريكة

"هناك أحلام تشبه الكتابة وكتابة تشبه
الأحلام".

امبرتو ايكو

"إن أمرك لا ينتهي أبداً ما دام لديك قصة
تسردها وشخص يصغي إليها."

...

إهداء

الى الأصدقاء

سارة

أمجد

محمد

أحمد

"الحياة ليست ما يعيشه أحدنا وإنما هي ما يتذكره وكيف
يتذكره ليرويه".

ج. غ. ماركيز

أن تنزلق في مستنقعات زينب بلال اللا واقعية، ذلك شيء لا يدانيه سوى الغبار العالق في كل شيء.. ترجع بك الذاكرة إلى الوراء تعرف كثافة الأيام، وبصيرة نافذة أقرب إلى الأسطورة. تركب الموجات ولا تتركها.

قالوا عن أبيك إنه ولي صالح، وتارة روحاني.. وكأنه يمتلك عصا سحرية يغير بها الأشياء. ينعكس ذلك في صفاء عينيه، رغم زيجاته العديدة وكثرة عائلته، إلا أن ذلك لم يمنعه من عمل الخوارق الغريبة والتنبؤ بأحداث جثام أثبت صدقها مرور الأيام.

وأنت يدهشك نداوة الملاين النسائية وعرقهن لحظات الظهيرة وتلك القهقهات والأحاديث السخيفة والمغلوطة عن الجنس، أيام الحنين لا تنقطع وأنت تجدل من الكلمات حروفاً تهدد العشاق.

زينب بلال بناتها السبع وأولادها الستة صارعت الأيام واستطاعت أن تلم هذه النقائص ولديها من الوقت في التفنن بإزجاء شغفها في الحديث عن الناس وزرع الفتن في الجوار.

زينب بلال في أوج أيام ترفها وأبهتها عندما كان زوجها حياً تمارس سيادتها بلا مبالاة.

كانت البلاد قد عرفت البترول، وها هي السنوات تمر وكأن إسفنجاً ضخماً يمتص العائدات حيث يعود الريح للمحاسب والمناسب وذوي الحظوة والمتعلقين بالحاكم. أضيئت المدينة وامتألت بالسيارات المظلمة عن بكرة أبيها، والأجانب يدخلون ويخرجون ويعقدون

الصفقات. كثرة السماسرة والخونة والإنتهازيين، هبط الغناء والفنون وتردت الإنجازات الكروية، وفي شاشة التلفزيون تجد المذيعين المنتفخي الخدود يتسمون.

يحكون عن منع البرلمان لتوزيع الواقي الذكري، لقد ازدادت تجارة الفياجرا وحبوب منع الحمل، ومنحدر الآيس. كثرت التقلبات الإجتماعية. والصحف اليومية تورد أحداثاً تجاوزها الزمن وكأنها تحكي عن خرافات خيالية، ومانشيتات الصحف تُكْتَب فيها وعود المسؤولين التي لم تتحقق.

البلاد كلها صارت تردد الأناشيد التي تقاوم الغزاة.. حتى طيور الكناري عبرت النهر... سمعها المزارعون تردد: " الأمريكان ليكم تسلحنا وروسيا قد دنا عذابها".

انتظمت البلاد البيانات السرية المؤيدة لعبد الباقي جبل الحديد، الكثيرون لا يهمهم ما يحصل الآن، لا ذوا بالصمت منذ زمن بعيد، وتعاملوا مع الاضطهاد بلا مبالاة.

أرسلت الرقابة لشبكات الإنترنت.. وأنت لا تنقصك الموهبة بإتيان الخوارق كوالدك تماماً.. الحقيقة أن ود ضيف الله كان فاهماً شطحات ود أم ريوم والقاضي دشين والشيخ حمد الأغبش.

وها هو التاريخ يعيد نفسه بغباره المتناثر على الوجوه يكسو كل الموجودات.

أمك تقول لك: دع حب الدنيا وهذا المجون الذي تعيشه، كن كأجدادك الذين (يروبون) الماء، ودع طيور الجن المعشعشة في رأسك.

إنهم يقضون وقتهم في المضاربات "فضلة العبادلة" وسماع المديح ولكنهم يشاهدون القنوات الفضائية وأفلام الجنس والآكشن. وهوايتهم مصاهرة ذوي الحسب والنسب، مهارتهم في بناء طابق على طابق. تلك أيام بعيدة والآن أصاب التخشب كل شيء.

التفوق واتباع طرق من العهد القديم، المحيط الضيق وعدم فهم الأمور الراهنة يؤدي لتعكر المزاج.

لقد أولدت (اللقدين) رجالاً عظماء، وكانت لها حضارة لا مثيل لها، ولكنها دائماً ما تنتكس كأن لعنة أصابتها أو نحس.

هذه أيام الضجر والتفاهة، والناس منهمكون في أشغالهم المعتادة، أتى عليهم فيضان لم يشهده خلال عدة قرون. الأطماع والفساد ما فتت البلاد. لافتات الشعارات القديمة بهت لونها وفيها بقع من فضلات الطيور.

لقد تنبأ والدك الوقور بحدوث هذا الخراب ولكنهم لم يصدقوه أو يسايروه في شطحاته.

قالت زينب بلال: إن أياديهم ناعمة كريش النعام وهي تغسل ما بين فخذها سبع مرات.

نعيم الأجواد نائب عبد الباقي جبل الحديد المراوغ لم تسعفه موهبته
في بعث الروح في قلوب الجماهير. وبلغ ذروة الهياج وهو يزود حديثه
بحجة أننا سنقاتلهم ولدينا كتائب الظل سننتصر عليهم وبقوتنا الخارقة
سنسبي نسايتهم. والجماهير تتوهم أن عبد الباقي جبل الحديد يعرف
زقزقة الطيور في أعشاشها ولغة الأعاجم وحتى الببغاوات المسجونة
في أقفاصها.

شحن الميدان عن بكرة أبيه بالبراميل المملأى بالثلج وبصحون
الفول والبلح.

الزمن كفيل بإزاحة ما على الناس من قرون.

وزاد الأثرياء ثراءً وزاد الفقراء فقراً.

أمك تهاجمك ولكن لو كان والدك حياً لتفهم تواطؤك وأحاديثك
المتضاربة، يا لغيابه المبكر.

كنت تود أن ترى النور من خلاله.

وعلى مر السنوات ما زلت تتحسر على تركه إياك لهذه الأيام الرهيبه
ولحظات السهد. كم تمنيت كثيراً أن تموت أو تغوص بك الأرض.

لو أنه كان موجوداً لعرفت منه تلك الخوارق والمعجزات ولنقتب في
حياته وكتبت بالبرهان عن علم يمهد الطريق للسالكين. عندما بنى
أجدادك هذا المجد كانوا رجال علم ودين أمراء حرب حددوا هذه
البلاد شرقاً وغرباً. ولم تلههم الحلي ولا القناطير المقنطرة من الذهب

والفضة أو الثروات عن أهدافهم. ولم تنهم الشطحات والأحلام ولا الأوهام المشوشة، بنوا المجد تاريخاً تجري به الأيام.

لم يتخيلوا أن هذا المجد يمكن أن يطاله الفشل. مكان سكن جدك تحول الآن لمستشفى يأتي إليه المرضى من كل مكان. ومن الأماكن البعيدة. اختلقت المدينة بمختلف البشر.. الأرمن، الشراكسة، الأتراك، الأقباط، الهنود، التافات والشوام عرب وأفارقة. نهضت حضارة هنا من هذا الخليط.. يبيعون الأعشاب الشيخ والحبة السوداء، القنق، الحلبة والسنمكة.

حتى الكتب الصفراء لها طلاب: الروض البديع، نزهة العشاق، قوت القلوب، طوق الحمامة، بدائع الزهور، تاج الزمان، شمس المعارف، أكام المرجان.

اللقدين بكوارثها أضحت سخرية للتاريخ بعد أن كانت لها مكانتها. ووصلت في غياهب تسكعها إلى الهذيان، والخطب المضطربة والمبادرات والإتفاقات التي أوصلتها إلى الإنحطاط. حتى النساء والمحظيات تتحقق أحلامهن الأسطورية في تزييف التاريخ، وتحول الحنين إلى مصالح والمستقبل الباذخ الموعود أكلته الأمانى الجهنمية وراح في أزمنة الضباب الرمادية التي كانت تود تغيير مجرى العالم المشروع الحضاري وتلك الأوهام.

اللحظات أضحت سطحية تتناوشها الأهواء الجامحة والأحقاد والقلق. فقد الناس أريحياتهم منذ أمد بعيد. كمل شجر الطلح

استهلكته النسوة بدخانه العابق بين أفخاذهن، مما جعل البلاد تصاب
بالتصحح الذي أودى بها الى الشلل. الآن الوطن كأنه شرنقة كبيرة في
طور التشكل، ماذا باستطاعتك أن تفعل والناس غارقة في التضخم،
والأحلام المهفهفة طارت مع دخان الطلح، كسدت أسعار الكلسونات
النسائية؛ إنهن صرن لا يلبسناها.

أمام حيرتك الراعشة انقلبت كل الأمور وتأرجحت، لقد دجن
الحكام الجن حتى ينتصروا على خصومهم، وها هو الصلف والضرائب
والجشع طوّحت بالفردوس المنشود، وأضحت الحقيقة أن المشروع
قد تبخر في ظل التدخلات الأجنبية. وإن كان طواه النسيان إلا أنهم
يلوحون به عند الملمات. لم تنسهم الأنشطة المتعددة بأن الطريق إلى
النهاية بات قريباً. وها هم الأتباع يعانون من ارتفاع الأسعار
والاستقبالات الحاشدة تعيد عهد طه الأبيض الذي وعد بغرس
الخناجر في الصدور.

الكبار الذين يعرفون الحرمان اشتهوا روائح مؤامرات تتم،
والموسيقى الصاخبة تغطي على صوت البطون الجائعة وتراويل
القرآن وقعقة السيوف.

ينتابك الندم وأنت تتحمل الصدمات القوية، مقابر ملأى بالجمام
اكتشفت.. أناس اختفوا، ألم ينغرز في القلوب لا تخفيه الدموع،
حكايات خرافية تمت.. المشهد مليء بالألعاب البهلوانية، أمراض
خطيرة انتشرت. أحزاب انشقت وقدرة مغنطيسية تجذب الناس

للحزب الوطني الحاكم. ساحاته مألّى بموائد الدجاج رغم أنفلونزا الطيور، شحدوا أحاسيسهم بمواهبهم الخارقة. توصلوا لهذه العزلة وصاروا كقطعة صوف مبلة. الآن أتت أيام الحزن، والدماء المخضبة وأشلاء الخصوم. ما عادت المراهنات البائسة على الزمن والأحداث تتسارع، دبّر أمورك وإلا طال البارود أعشاش فخذيك، وأنت تقرأ نسخة قديمة من الطبقات عن خوجلي أبو الجاز وأرباب العقائد الخشن.

تحس بالإحباط يجتاحك وكارثة تهب على الأفق. كل أطراف الدنيا اجتمعت هنا. لم ينفع ترويض الصيد ولا الشجب والتويخ، إنهم لم يتغيروا، وصارت النقائص تكبر كل يوم، المؤلم أن الضمائر أيضاً كانت قد نامت والشعور بالإثم لا يؤدي دائماً للفشل، جرعة وراء جرعة شرب الناس المر. أن يصفى الدهر لأحد، ذلك من المحال، المحزن تزييف التاريخ وابتذال اللحظات بحشرجات فيها تصفية الحسابات.

زينب بلال زوجة أبيك تقف مندهشة حيث أدركت أنك ترعى إخوتك الثلاثة عشر، وأنت لن تنساهن "إن الدم لا يصير ماء والليك ليك لو بقى لبن عشر سويه في عينيك".

كادت اللقدين أن تقطع أجزاءها الجنوبية والغربية والشرقية. وفي مثل هذه الفوضى لا يجدي الغضب. زينب بلال المتسلطة تطرق عظامها. تجفل منها العجول في الحظيرة ودجاج الوادي المنقط.

تصك أسنانها الصفراء وترثي حظها العاثر بوفاة أبيك، وكلما زاد صراخ بناتها تصبح أكثر ضجراً وتنهمك في غزل شال الصوف الذي بيدها. زينب بلال فالحة بالسليقة، تزرع الجرجير والنعناع والطماطم وتعمل الخدع للنسوة المحترمات، يصغين إليها في تجمعات حفلات الزواج والمآتم تمارس الغش، تقلباتها تنمو كالبلابل المتسلق. وهي تعرف كيف تحاكي الأزمنة الجديدة، وتعتقد أن الدنيا لا زالت بخير. رغم كفرها إلا أنها تزور الأولياء.. وهي من سلالة كانت تهرب السلاح والذهب والتمور للمتمردين. لها ضحكة لا مثيل لها تبعث من فم نديان ورائحة عرقها تتغذى منها ديدان لا تُرى. تحب التجارة، وبصلافة أقرب للتبجح تفرض آراءها، وبذاكرتها الفولاذية تنزلق لشرور تصيبها بالإنشاء، بناتها يشاركنها الانتشاء ويتأسفن على زيادة أسعار السكر لأنه بذلك سينبت لهن الشعر الذي يصعب إزالته.

لزينب بلال لحظات إشراق، وهي تغمز بعينيها عندما تنصب الشراك في زبونة لها، وعلى طول اللقدين والبلدات المجاورة. عرف الناس زينب بلال ناموسة تمص دم ضحيتها، وبناتها حشرات لا يمكن الإستغناء عنهن، وبيتها الموروث أباً عن جد تصدر عنه رائحة المؤامرات والغيبة، تتباهى زينب بلال بأثاث منزلها المستورد من إيطاليا ومع أبنائها المجتمعين كماфия لا يمكن أن ينتقدهم كل من هب ودب. سلطنة مقدسة. أنت أخاهن صحيح لكنك لا يمكن أن تمارس سلطتك عليهن، وعندما ترى من إحداهن ميوعة فليس عليك إلا

الدعاء، لن ينجدك التاريخ ولا مجد الآباء المؤثر. اجلس هناك في غرفتك ذات الألوان الباهتة استمع لغناء القماري تهدد صغارها وتحكي لها عن الغائب الذي لا بد أن يعود.

زينب بلال بخيالاتها المتعددة تستعرض بناتها، وأحياناً تخلط أسماء البنات لتشابههن في الجرأة واستغفال الزوار.. وحتى أزواجهن عديمي اللون والرائحة والطعم، تعرف متى يحضن ومن هي الحامل وتلك التي لا تستعمل الحناء.

أسقطت فاطمة القصب الأحمر حملها بعد أن أن جلبت صفيحة ماء متعمدة حتى تقول أن مصطفى طال العهد به ولم يقربها. قدم عابدين ابو لمصطفى شراب التفاح المثلج وبه سحر أسود تعلق وجهه ابتسامة صفراء. احتسى مصطفى القارورة حتى نهايتها. مسعود الباهت من دفع عابدين ليقدمها له ومن يومها والرطوبة تأكل ركب مصطفى وينخر عظامه السوس والخشونة..

كنَّ عندما لا يجدن أحداً يغتبنه أو يتشاجرن معه يوجهن سهام كراهيتهن لبعضهن حيث إن نزواتهن لا تُحد، وزينب بلال لا يغمى عليها، فهي لا تتصور نفسها أن تكون قشة في سقف. كن يتفنن في عمل الأكل والسلطات والمحاشي، الكفتة، السجوك والمارتديلا والبيرقر، ويقضين أوقاتهن في شرب القهوة وإيجاد الحيل لكبح خصومهن وتحقيرهم وتمجيد أهلن بمبالغات تصيبك بالدهشة،

الكذب عندهن ينزل عليك كصاعقة، يتكرن للجميل، وفي تحولاتهن وتبدلاتهن صرن كالمسخ.

تأثيراتهن ما عاد لها وهجها القديم.. واقتباساتهن صارت بالية، عليك أن تراجع حساباتك، لن يكون في مقدور أحد أن يعرف خطط زينب بلال الجهنمية حيث إنها لم تحظ باعتبار حقيقي لوضاعتها.. وإن سايرتها ستصاب بالتعب، ولتضرب عصفورين بحجر عليك أن تنتظر رغم الوضع المزري الذي أنت فيه. ألاعب زينب بلال ومشاهد أولادها التهريجية تجاوزتها الوقائع والأحداث. تقضي سحابة نهارها في النهيق. تنشط في عمل الخدع بقلب متغطرس، ها هي تعني بالشتلات اليانعة رغم نظرتها القاتلة. لقد تقادم العهد بالأثاث، تهمهم زينب بلال بوقاحة، ازدادت تجاعيد وجهها، ودماغها العنيد يعمل كساعة كوارتز. هي تعلم أنها أرملة وأن إرادتها قوية وتحب التناقضات مما جعلها تأتي بتصرفات متطرفة.. امتلأت زينب بلال بالأولاد والبنيات، كانت تعمل ورديات الليل كلها، والآن صارت ترعى أحفادها العديدين كبستان.

رَدَّات فعلها اختلفت، صار قلبها أكثر حنيناً، وتحايلت على كبر سنها لتعيش أمومتها بتربية الأحفاد، كانت تشرف على وجباتهم الغذائية وذهبهم للمدارس واقتراح تزويج الطفل عمر من بشينة، تنقي عصير الطماطم لأحمد وشاي النعناع لآمنة، متى يتخلص الكون من هذه الترهات.

كانت تخاف أن تؤثر في أحفادها وتصيبهم بعدوى تمردك وجنوحك، وهي في جنونها وهذيانها تمثل لغزاً محيراً رغم احتكارها لتربية أبناء بناتها، مما يجعل الأمر خطيراً في المجتمع وتهتز توازناته، وهذا أمر لم تحسب له حساباً بتعليمها القليل وتخلف آرائها غير المواكبة. ميزتها الوحيدة أنها شديدة الخصوبة مما أورث بناتها هذه الخاصية، وكساحرة عجوز كانت تبخر أجسادهن بخشب الصندل بعد أن ترفع ثيابهن، النظافة الجنسية هي الأهم هكذا كانت تقول.

من ميزاتنا أنها كانت تتمتع وتخفي جذوتها المشتعلة بهذه الشراسة، تصرخ باستفزاز وتشارك في تدليك العروسات الجديديات وتجهزن دون أن تطلب مليماً.

تعرف تقلبات أحوال النساء وكيف يؤثر فيهن الطمث، وتعرف الرجال أن أكثرهم جعجة أقلهم طحيناً، ابنتها "فاطمة القصب الأحمر" دائماً ما تخالفها ولا تقعد لجلسات التدليك التي تأخذ المساءات الشتائية الطويلة، ينمو الشعر على ساقها ويتسلق المنحنيات والمرتفعات والدوائر، وهي بطبيعة الحال أوهبتها خصوبتها الخارقة وشبقها وتفننها في رسم الحناء.

ارتابت زينب بلال بعلاقة محمود البله بحميد ذو الحديث المائل؛ دائماً ما تجدهم يوسوسون. حميد صار شريكاً لمحمود في لياليه المخملية وذاك المجون.

الحنان والجشع ذلك سر زينب بلال الذي استطاعت أن تمرره لفظومة القصب الأحمر رغم مظهرها المزري، تحالفهن كشلة ماخور يفتشين الأسرار ولا يتورعن في عمل المخالفات، رغم عدم تحدثها إلا أنها لا تزال قوية تواصل تحسين صورتها بحجة البحث عن السعادة في تربية أبناء بناتها وأولادها العديدين.

لم تنطل الحيلة على أحد، فزينب بلال المخادعة أورثت كل ذلك أبنائها وأحفادها، ولكي تتجنب المفاجآت كانت حذرة في تبولها.. وتدعو أسلافها أن لا يطالها سرطان الثدي أو ألم المصران.

فظومة القصب الأحمر رغم أنها ولدت بنتين إلا أنها اتفقت سراً في زواج ابنة خالتها عنيبة الموز مع ذلك المغترب في أن تطلق زوجها وتلحق به، عدم كبحها لنشوتها والدموع التي ترسلها دون سبب جعل زينب بلال توافقها على ذلك الإتفاق. ورغم مرور ثلاث سنوات على فسخ الزواج إلا أن الزوج المغترب لم يأت. صارت فظومة تغذي الحمام في الساحة وتقوم برش الزهور بالماء، كانت تشعر بالضيق لخططها التي لم تستطع تمريرها.

تحس بيد زوجها تُمرر عليها، وفي لحظات الدلع والنشوة تغشى عينيها غمامة من الرضاء حتى مذاق القبل التي تهزها وترجيه لها أن تغذي طيوره الشاردة.

كم من لحظات الفرح الغامر احتستها، وفي هنيهات غرز
الخنجر تنام كالمذبوحة، رغم الحواجز، يا ليتها لم تسمع كلامهن
وتطوح بكوب عصير البرتقال من النافذة.
ها هن جالسات في باحة المنزل مع عائلتها الكبيرة. لو عاد كل
شيء لمجراه.

كانت كثمرة فاسدة زينب بلال التي لا زالت في ضلالها
القديم. الأرض تمتد حتى الأفق الغربي والسماء غامقة الزرقة وطيور
الرخم محلقة في الفضاء العريض للقدين.

ملكة أخت فطومة نصحتها أن لا تستعجل، ولكن ها هو الفأس
وقد وقع في الرأس، أن تكوني وحيدة ليس ذلك على ما يرام، هكذا
راحت فطومة تسلي نفسها وتأسى لحال أختها ملكة وزوجها عابدين
البو. عابدين السمج يقضي الساعات في مطاردة النسوة وفي بحثه
الدائب عن الجمال، تملكه التيه والضياع، سرعان ما أدركت ملكة
مهزلة أن تعيش مع عابدين الذي يطارد الفراشات في سمائها، طبعه
القلق وتنقل عينيه من مكان لآخر كأنما في رأسه ريشة، عبثه ولزوجة
تصرفاته وانزلاقاته التي لا تُحد. لقد برهن على نشر ظلاله رغم
الصخب واكتشاف ملكة لرياحه المواتية وخيالاته المريضة، جنبه
وتدليسه للفتيات الساذجات وغرس رماحه حسبما اتفق، الغريبة أنه
دائماً ما ينجح بفضل مهاراته وصبره الذي بلا حدود.

كانت علاقة مصطفى مع ابنتها فاطمة القصب الأحمر تتوقّد،
تشتعل فجأة ثم تخمد. يأتي صوتها هامساً متدثراً بالشبق والشغف
والندى يتراقش على العشب الأخضر الريّان، تكسوه شهوة مندفعة،
صلبة تتأرجح ما بين الجوع والشبع. تنداح مندلقة، تتحوّل إلى قصيدة
نثر ذات أريج فوّاح وعطر نافذ. يحاول أن يجسدها في نطفة بلورية.
تفلت منه وتبقى آهة معلقة في السماء.

التفن كلهن حولها؛ أخواتها بنات زينب بلال، كتلة من الشر
والعقد والحسد.. الإستبداد والزيف يخضن حروباً غبية بلا وعي أو
إدراك كفريق خلاء فقد البوصلة. كالكارثة اجتمعن في يوم أربعاء أسود
أسمين الحفيدة الجديدة (زوزو) التي هي الخالق الناطق على صورة
جدتها تماماً.

الأم الكبيرة كقوقول متكأة على وسادة من ريش النعام مغطاة
بقطيفة من السندس الأخضر ومعطرة بأريج الصندل الفوّاح. شعرها
مضفر ضفيريّتين مضمخة بالند والمحلب وعطر النعناع. صورة الأب
معلقة على الجدران حيث كان يصم بالعشرة على كل تلك الحكايات
المهترأة وإلا سيصاب بالإزدراء والعزلة المجيدة.

مسعود الباهت، ابنها البكر، كانت زينب بلال تسيّره حيث تشاء.
وها هي اللقدين تتحدث من أولها حتى آخرها بأن بدور لم تعترف
بقتله للقطعة ليلة الدخلة. والحكاية معروفة للقاصي والداني.

أرواح عامر الجعفري وأحمد طلحة.. روحية وحتى الجاك ترفرف في
مجلسهم العامر. شوارع اللقدين وبيوتها وأشجارها وزرقة سمائها
الصفافية بعد المطر وأغاني العشق والخيانة تواطأت كلها لتزين صورة
زينب بلال الزاهية وتتداخل الأزمنة.

فاطمة القصب الأحمر ترفل في أيام مجدها. تمتليء بالرياح
والأشواق. زيبتها الخامسة لبدوي متمرد و زينب بلال تفتعل
الأزمات، تثير الضجة، تدلق مياها الآسنة وتذرف الدمع السخين.
مصطفى يكفكف أكمام قميصه الكاروهات ويشمر عن سرواله الجينز
ممتليء بالعنفوان والجسارة. كل شيء يسير ببطء. تقف الأشياء كلها
صفا انتباه حد الإرتواء. واللقدين في تلك الأيام مملوءة بالنضارة
والتوهج والوسامة.

فاطمة القصب الأحمر تنسج المؤامرات وتستعين بأحمد إدريس.
تعمل (الكواديك) التي تصيب الهدف باتقان.. تزين الحكاوي.
شمارات تتبل بها المجالس كأماها تماماً. تسرد الحكايات الشريرة.
تلتمع عيناها ولا يرتجف لها جفن. دائماً ما تمر على لحظات السعادة
مرور الكرام وحميد ممتليء بالأشواق والعزيمة أن يعيد الماضي القديم
رغم بؤس الحاضر والجيل الرابع قد نسي كل التعاسات والأقذار
المندسة والمتربصة في الطرقات.

تنداح كلتوم، دهاؤها وخيالها المستثار وتلك الانفعالات
والشهوات المباغطة. تشف حنايا البدوي الخامس. تحلق روحه مع

الجمال الباهر. يلج الأحلام الوردية ومع هبّات نسائم الخريف الباردة
يفرهد الشجن.. تحلق الأشواق مع نجوم الليل وتنزوي الآهات إلى
تخوم الدهشة الباذخة والوجع.

هنا تخذ فاطمة لغفوة تستعيد الماضي.. خلجات الجسد اللدن
والشعور الموازي.. تنداح مشاعر الغزل والرومانسية.. يختلط الوهم
بالحقيقة.. الخيال مع الواقع.. تمتزج المشاهد والأهواء في سماء
اللقدين.

زينب بلال تتمحور.. تتمحرك.. تنداح.. تتجسد في الحفيدة
زوزو.. تتقمصها ويكون الإحلال.

ينمو الزيف يتسيّد المشهد، صراع الإرادات والحكاية مليئة
بالإشارات والدلالات. يميل الكون.. تتشقلب (الريكه).. ويسير
البدوي الخامس في الرمال المتحركة إلى المجهول.

تحاول أن تتخلص من ذكرياتك بالكتابة، حظك التعس رماك في
نسج الحقائق مع الخيالات وأنت مغرم بتصوير الأحداث البعيدة
والغريبة.

رغم الفقر والجهل والأقدار التي تسوقك للهاوية والدك هو من
غرس هذه الجزئيات فيك وها هي تخرج بيسر.. تشتم روائح خفية
وراء الظواهر.. والأحداث تتحرك في زمانها المبهم والخفي، والحياة
تتجدد بقصص دائمة ورائعة.

اللقدين في تلك الأيام تموج على طريقتهما، تجارة يلتقي فيها الشمال بالجنوب، وعلى درب الأربعين ومن جبل العرشكول حتى جبل بيبال. تهريب الجمال والبشر واستغلالهم وتجارة العنبر والند والمسك والسوميت والصندل، وحركة التجار لا تنقطع من الغرب؛ من نواكشوط حتى جبال البرون والحجاز. الناس عرفوا سفر البحار والصحارى، وفيات كثيرة تمت لسوء التقدير ومصائر اختلقت، هذيانا كتبت عن تلك الفترة تركت آثارها حتى الآن.

لقد تعلمت منه كيف تكون مثالياً بقصصه التي فتحت عينيك على العالم، ذلك الحنان في عينيه الواسعتين، عوالم مكتملة غريبة ملأى بالتهويل. كان شجاعاً ووميض عينيه يقطع الزمن والمسافات، والخيوط المتشابكة، تتشعب وهي تعج بأراء عن المستقبل وتفجر الأسئلة كشظايا، حاول أن يجنبك الشقاء والتعثر.

فجأة بعد موت الوالد صار كل شيء ممكناً:

زينب بلال تغني في (الهول) بصفاء. لقد زالت المعارضات الهشة، وأضحت تمتلك محيطها. تلاشت حيرتها مما جعل أيام السعادة الأولى تعود إليها.. مصطفى زوج ابنتها فاطمة القصب الأحمر يجب التخلص منه، إنه موبوء برائحة التمرد. أرسلتك لعمل الإجراءات القانونية ضده. ورغم المطالبات المالية الفادحة إلا أنه شيئاً فشيئاً انتهى الأمر. مما دفع لحالة من الإنطواء وعماه الصقيع القاتل، راحت حيويته التي اتسم بها.

لم يعطوه توضيحات، زينب بلال حطمت الحظائر وقناني
الدجاج حتى الأقفاص. وصارت تضرب عشوائياً في كل اتجاه. حتى
رسائل الحب التي كانت ترسلها لأحفادها ما عادت كالسابق، ووجدت
نفسها في صحراء رياح رمالها الغائصة حيث تصيبها بالتعثر. أن تحس
بأنك واقع في فخ. أين الشجاعة تلك؟ وذاك الحنان والعشق، أهي
نتيجة تهويمات؟ والأجساد الفقمة تهيم بالشهوة والغنج وصراع الديوك
على أشده.. الرأس الموجعة، الفراغ، القلق والإضطراب، إنه أمر غريب
في عام نسيت وفاة الوالد.. إساءة التصرفات؛ حرق التاريخ وفتح
شقوق وثقوب يتشرب منها الحقد والغضب، أضحت زينب بلال
المتيبسة محترقة ولم تسعفها الذكريات.. تحوم حول رأسها طيور
الحزن وتفوح من الدار القديمة روائح الغدر حتى لينخيل إليك أن
أشباحاً تطارد شعرها الأشيب وهي بملابس مهترئة في قامتها المديدة
كأنها دمية.. ما أتعسها وهي زائغة النظرة شاحبة الوجه، رغم سخونة
الطقس إلا أنها امرأة كالحية في بعض الأحيان.

ابنتها ملكة تقترح لأخواتها أن يزوجن أمهن حتى تقلل أهواءها
وتنسى حزنها وتكرس باقي أيامها للصلاة.

فاطمة قالت إنَّ الفكرة تافهة، ولتفادي نزواتها علينا الجلوس معها
حتى لا تشعر بالسأم ولا تتأثر بموت الآخرين حتى لا تعيش في شقاء.
مسرور أخوهن تحوم حوله أحاديث جنونية وعاصفة، وجد نفسه
كقائد أعزل وسط جيش الأعداء، أدرك خطورة أن تكون قائداً لجيش

من النساء، حاول أن يثأر من خصومهن العديدين مما أدخله في لعنة
العزلة، لم يكن يقوى على الانفكاك من تأثيرهن.
أشد ما يخافه أن ينفطر العقد، ويتمنى أن تحمد جدوة والدته وتترك
أشواقها الدفينة وأن لا تتزوج من جديد.

مسرور عاد إلى منزله مطأطأ الرأس وقد امتلأت نفسه بطرقات
ملاى بالأشواك وشعر بالحاجة للتقيؤ، أعطته زوجته كوباً من القهوة
وهي بأنفها الذي كالمنقار تدغدغ ابنتها التي تشبه زينب بلال تماماً. لا
تخاف من الفزاعة أو الحمى عندما تصيبها. لقد شهد مولدها يوم موت
الجد، وها هو مسرور يبتعد عنهن رغم توبيخات أمه والنحس الذي
ظل يلازمه طيلة العام.

راودته فكرة أن يرحل من هذا الحي، وهو يعاني من حقد أعدائه
ومشكلات أخواته التي لا تنتهي، لقد كاد الشراء أن ينتهي بعد أن
استقرن البنات في عائلاتهن قبل موت الوالد، إلا أن ثلاثةً منهن الآن
يقمن بمنزل زينب بلال حيث روائح الطمث وبول الأطفال، الحجرة
المكيفة الوحيدة التي تمتاز ببعض الترتيب، هنا زينب بلال تعقد
الاجتماعات التي تمتاز ببعض الترتيب، وتدير المكائد وتضع الخطط.
زراعة أرضهم على النيل، تربية المواشي، وسيارات الأجرة التي يشرف
عليها الإبن الأصغر. تربية الكلاب والقطط، وطيورها الحبيبة.

كيف لمسرور أن يقلل شرور عائلته، أمه الأسطورية تفتق ذهنها عن
مصاهرة أكبر أغنياء البلد، مسرور يطرد حزنه بفضل النجاح الذي
أحرزه. صار لديه كثير من المال، ولكن زوجته ذات المنقار تستهلك
كل ما يدخره، تأتي البنات يخدمنها يغسلن الصحون والملابس
وينظفن المنزل، ويطبخن الطعام.

مسعود الباهت أصغر أبناء زينب بلال أمسك توتره عندما وافته بدور. زينب بلال اليقظة تعرف تحركات ابنها وأنه يحب الأماكن المعتمة، مخزن الغلال، أو تلك الغرفة المهجورة التي يقرأ فيها ويكابد فيها نضج مراهقته، كان يغافلهم ويدخلها، يحكي لها عن بلاد تميم الخضرة وعن الطيور الملونة التي تحبها، يقترب منها وسرواله ينتفخ، يحلم بالسباحة في مياهها الرائعة ويأسى لهذه القوانين القاسية وكمية المحرمات التي تطوقه.. يحس بانحدار وكأنه يغرق في مهاوٍ سحيقة، رياحه مازالت عاصفة، وزينب بلال بمستنقعاتها تجرفه بدمها الذي يطلب الثأر من كل الكائنات. تريده زينب بلال أن يتعلم الطب، وهي في أوقات فراغها تطرز الملائيات بالحرير المستورد تداعبه وتضمه أحياناً، وعندما يغرق في نوم عميق يحس بشوكة منغرزة في قلبه، يفتح عينيه ويضم بدور ينقرها هنا وهناك.

تناوله كفها الصغير.. وهو في تنامي ذكورته أحبها بجنون، أحس بشفاها تتباعدان واحتجب تحت ذلك التشابك الرائع.

زينب بلال منهمكة في تطريزها.. تعرف أن مسعود قد كبر، وأنه صار يقول كلاماً لا معنى له، وتعرف أن الرجال يحبون الثقوب، فلتكشف عليه حنانها، لم تكن تتوقع أن مسعود يمكن أن يسلب لب بدور بذلك التعثر في عينيه، هي العنيفة والصارمة أنجبت هذا الولد الرقيق سبب شقائها بدهائه المحير، نزول أمطاره فورانه، وهي المنهمكة في الأعمال لكي تجنبه الصراع.

زينب بلال هزتها الفضيحة عندما علمت بحمل بدور من مسعود. صار ذهنها شاردًا في الأيام الأخيرة. لم تنفعها دعواتها ولا شرب القهوة بالحليب الذي أكثرت منه. لقد منعت بناتها من الخروج، قلصت حريرتهن وهي تعرف استخدامهن لمختلف الحجج للتخفيف عن نبض قلبها وآلامها، سارعن بإعطائها أقراص الصمود.

خلال هذه الفترة تدهورت الأمور وأحس الجميع بالضلال في اللقدين، بعد أن أصدر مجلس الأمن قراراته. صارت العصافير تترقق تواصل الغناء وطيور الرهو تملأ تهويماتها الفضاء.

الناس لم تقوَ على رد المصائب. يتوقعون التدخل الخارجي في أي لحظة وبائعات الشاي يبعن العرقي في زجاجات الكرستال. البعض يوزعه بالسايكل، يتنكرون في زي باع اللبن الحليب، الخمر البلدي، وشرائط السي دي الإباحية، وحبات الفياجرا الزرقاء التي بلغت أسعاراً خرافية والواقيات من الأمراض الجنسية تجدها والأحجبة والبخرات جنباً إلى جنب عند سور الجامع الكبير، مع سم الفئران ومسحوق تنظيف الأسنان وعرق المحبة ووصفات ضد أحزان القلب.

زينب بلال المتسلطة الوحيدة التي كثرت جمعيتها وتحت أنظارها وبتواطؤ منها صار ابنها مسرور يثرى ثراءً غير مشروع.

أخواته الشبقات انهمكن في خيالاتهن المتجددة وبكثير من الفضول كن يفسخن الجلد ويفتحن أقواسهن يتمسحن بالكريمات، وامتلائن بالبذخ رغم تخبطاتهن وغنجهن المتقاعس.

مسرور يعرف عناد أمه خاصة عند الأصائل وهي تستعمل قدرتها
الخارقة على قراءة أفكاره، رغم تشوشها في الأيام الأخيرة إلا أنها
تركت مسعود يواجه مصيره. رغم حذره إلا أنها قبضته متلبساً وهو
يرتدي سرواله.

بدور مغمضة العينين راقدة على جوال من قمح. شدته من قميصه
وأغرقته بوابل من اللعنات.

أنت لا تعرف الانتظار أو الصبر طاقاتك المهدرة في المعارضة لا
جدوى منها، تفوح منها روائح الجازولين وتذهب إلى العمل وبطنك
خاوٍ. وعن أيام الضجر والضياع والحلقات الجنونية تحكي عن
الحصار والعزلة الطوعية والفشل.

نحن في هذه المنعطفات والإضمات، نترنح في الإنطلاقات
والسقطات، بدأ الناس في تخزين الأغذية خوفاً من ندرتها. كم من
الجرائم ارتكبت باسم الإسلام.

المسألة صعبة وازداد عدد الضحايا. عبد الباقي جبل الحديد في
اندفاعاته العجيبة بذر الخوف والرغبة في نفوس الجماهير، علينا
مواجهة قدرنا، نفاذ البصيرة افتقده الناس.

زينب بلال سألتك عن الضريبة المضافة وعن البترول الذي ازدادت
أسعاره عالمياً، وما بالنا نحن لا نخفض سعره، لقد عرقت حتى الإبط
واضطربت وأنت الذي قرأت نظريات آدم سميث وكارل ماركس.

حواراتك مع أبيك وقراءتك لابن ماجة والطبري وحماد الثوري..
حوار الحضارات ونهاية التاريخ والثقافة والإمبريالية.. معرفتك عن
النجوم والطيور والجماعات السرية وما يرفد الفساد ويزيل العنة.
كثرت الساعات المضيئة في الشوارع وأبراج البلدية والبنوك والناس
في حاجة لاحترام الزمن. خلال ذلك كانت زينب بلال شديدة الاعتزاز
بنفسها.

أكلت الغيرة قلوب بناتها لم يستطعن التأثير فيها لصرامتها وتلونها،
كانت تغتاب الجيران بنذالة ولا تستشيرهن في الفترة العصبية وتتصنع
عدم سماع النصائح أن الدجاج مات بسوء التغذية والعجول قتلتها
الحروب. تمدد زينب بلال رجليها ترفع نهودها الهائلة وتتذكر مسعود
الباهت تصك أسنانها وبناتها يهرشن ما بين أفخاذهن، لقد سيطرت
عليهن ومنعتهن من المغادرة، وتجنباً للمفاجآت، البنات بدأن يخالفنها
الرأي أنها تستغلن ولا يردن أن يكن ضحية لها، كن يقلن إنها غول،
مصاصة للدماء أو كالعنقاء تحن للقتال أو كبومة تحب جمع الأموال
والسيطرة ولا تلتفت للأمور التافهة.

وفي ذات ليل لا تغيره رياح الصيف جاء مسعود الباهت مع زوجته
بدور التي تزوجها عرفياً لمنزل زينب بلال.

هدأت الطيور في أشجار النيم والبعوض يزن كالموسيقى. لم تنبس
زينب بلال ببنت شفة ولكنها صوّبت نظرة طويلة لمسعود، نظرات تحد
ذلك ما استشفته بدور، لم يكن مرحباً بها وقضت النهار بطوله في

غرفتها. لم تنزع ثيابها ولم تتمرغ في العسل، وبعد يومين سلمن عليها بتحفظ، وشوشن في أنوثتها الطاغية، وتحركت مستنقعات زينب بلال، أرسلت حشائشها المتسلقة وحشرات الالاسعة، قاومت بدور دهاء زينب بلال وأفرغت خوازيقها الخارجة. قالت زينب بلال إنها من طينتي ومن يومها والأرز يغلي في القدور. بدور بأسلوبها الظريف استطاعت أن تميلهن عليها وفي مدى شهر حبلت بدور صارت تساعد زينب بلال في طلاء الموائد الخشبية، وعمل مستلزمات شهر رمضان وحلويات العيد، وفي ذات صباح وجدت بدور بومة مدفونة في عتبة بيتها، إنه نذير شؤم. زينب بلال تقطع مكعبات القرع. إعداد مربى للصغار، تصالحت الإمرأتين بعد أن وفقت بدور في مساعدة زينب بلال، وانشغالها بتجميل جسدها وتعطيره. بدور علّمت زينب أمور دينها وقصص التاريخ وحروب المهدية وانتصاراتها، صارت بدور تلد كل ستة أشهر وزينب بلال تربي أولادها، رغم أنها تشتمها وترسل أحقادها عليها. أعلنت زينب بلال هدنة بمناسبة ولادة توأم ابنها مسرور تستمر لمدة أسبوع.

عبدالباقي جبل الحديد هذا لا يساوي شروى نكير لقد بدل من حديثه كثيراً، كرشه الضخم، مؤخرته المنتفخة، ورقصه في المناسبات، صار سخرية اللقدين، حيث إن قراراته لا تنفذ، لقد تحايل الناس على كثير من القوانين. اليخوت والقلل الرئاسية المبنية على الطراز العربي القديم.. شق الشوارع وإقامة الكباري والسدود وانتظام الأمور..

الأعراس الجماعية والأغاني التي تمجد الرجل المتزوج.. الخصوبة
الفائقة نتيجة التغذية الدسمة.. المعارضون يموهون عمل عبد الباقي
جبل الحديد.. زوجته بهرت الناس بجمالها الفائق ولباقتها. تظهر في
شاشات التلفزيون مع أولئك المحظوظين من المشردين واللقطاء
والمهمشين وأولاد الشمس.

ولد عبد الباقي جبل الحديد من أب فقير، الفقر ليس عيباً ولكنه
يسكت عن فساد بطانته.

زينب بلال تضرب الودع وتحدث بنزوات عبد الباقي جبل الحديد
وتغاضيه عن محسوبيه.. اللقدين تنام على صيف يدوم العام كله. الغبار
يدخل أدق الأجهزة الكهربائية. عبد الباقي جبل الحديد يعرض في
الإحتفالات الجماهيرية تهتز مقدمته ومؤخرته معاً، وبابتسامة عريضة
وغامضة يستعرض عضلاته كأنه يقول لمشاهديه وأعدائه إننا جاهزون.

زينب بلال تعجب لأشياء كثيرة؛ اختفاء حيوانات الحديقة، لبس
الشباب للضيقة والشفاف والناصل، موت البعض جوعاً وموت آخرين
بالتخمة.

لقد نال السأم من زوجة عبد الباقي جبل الحديد فقررت الإنشغال
بالجمعيات الخيرية.

العجائز والمسنون يكون على عهد الإنجليز، وها هم أبناء جلدتنا
أذاقونا الأمرين، انتشر الغناء الهابط، والزواج العرفي، الإيدز والعمالة
الأجنبية، كأننا في حلم تراجيدي.

رغم جمال زوجة عبد الباقي جبل الحديد الأسطوري إلا أنها لم تكسب الرهان في إنجاب طفل يملأ عليها حياتها. أشجار تتحرك في الأفق، عندما تبلغ الأحقاد ذروتها ويسخر الناس من معاوني عبد الباقي جبل الحديد العنيد والدمويين. أنت تعمل متحفاً لسفاحي التاريخ وطغاته ماركوس شاوسسكو. تيمورلنك. الحجاج. هتلر ونوريقا.

رسومات على القماش وتشكيلات من الجبس، نحت من الخشب، وفي ذاك البدروم الذي استأجرته لهذا الغرض وجوه دَهْشَة كأنما ركب فيها خازوق، وأخرى مضطربة وبعضها يصيبك بالسأم وأولئك المهرجين الصغار. عندما يملكك الضجر من نشرات التلفزيون تدخل البدروم وتوسع الحاكم ضرباً، أصدقاؤك المقربون يعرفون متحف البدروم، هؤلاء الحكام الفزاعات خيالات المائة، حتى خطبهم مسجلة في جهاز للفيديو، رغم ذلك عرف مخبرو عبد الباقي جبل الحديد مخبأك، تلميحاتهم وتوجسك جعلهم يعرفون محل المخبأ. الفاجعة أن زينب بلال هي من أرشدتهم لمكان المخبأ، وكانت تعتبرك من الطابور الخامس.

بلحى نابته وشوارب مطلقة داهموك عند المغيب، وكفرخ طائر يابجاد عشه أوسعوك ضرباً، الناس كلهم متهمون.

البلد الآن مليئة بالرخاء. ما بال الناس يتضجرون. الوشاية وخراب البيوت، حتى الهواتف النقالة هي الأخرى مُرَاقِبَة. وصار الأقارب لا يثقون في بعضهم وأنت تعيد قراءة الطيب صالح. من أين أتى هؤلاء؟

الظروف الطارئة جعلت الناس لا يضاجعون نساءهم، وتلاشى الحنان، المركب أشرفت على الفرق.

بعد أن استعادت زينب بلال تماسكها، جلست في الديوان تشتم عطر الريحان، تجيل بصرها كما في الأمسيات الرائعة التي تقضيها مع بناتها، لم تتلعثم ونذر الشر تتطاير من عينيها، رغم تلك المقولات التي أثارت البلبلات إلا أن انتحار ابن أخيها الفتى القزحي.

لم يكن بسبب طلبه ابنتها ملكة للزواج ورفضها الشديد له، حيث قابلها بوجه عبوس، رغم الثراء السريع لعائلة زينب بلال إلا أنّها كانت تعتقد أن وجود بدور نذير شؤم. انتحار ابن أخيها مدد الشقاء وجفاف زهورها واهتراء الجدران، حتى الأثاث تفككت أطرافه، تعقدت المشكلات في اللقدين وانقسم الناس لفريقين: فريق يناصر عبد الباقي جبل الحديد وآخر ضده. دعوات أئمة المساجد لم تجعل الناس يذهبون لعملهم، تقلص زمن الحفلات الساهرة إلى ما قبل منتصف الليل، أُغْلِقَتْ أماكن النارجيلة.. الشعراء يكتبون قصائد للمقاومة، سيطر الترقب بثقله، فقدت القيلولات وهجها؛ صارت ماحقة، ولم تسر الحياة باعتيادية.

بنات زينب بلال اختلت دوراتهن الشهرية، بل الأخطر من ذلك توقفت الساعات الجدارية عن الدوران. جهود مضنية بُذِلَتْ في تلك الأيام لتماسك الجبهة الداخلية، أعصاب انفلتت، عروق انتفخت،

وأراجيزك الموجودة في متحف البدروم صارت تخرج للشارع تُجالس الناس في المقاهي، تحاول استقامة العود والظل أعوج.

ذات يوم وصلت رسالة لعبدالباقي جبل الحديد لم يفتحها ولكن بعد يومين تشجع وفتحها كاد وجهه يتفجر من الغضب، إنها مكيدة، قالت زينب بلال: الأحمق كان يجب عليه أن لا يفتحها إذا كان البعض يريد إدخال شركائه في اللقدين فما المانع، والمصلحة مشتركة لم يجهر أحد بهذا القول.

إلا أن عبدالباقي جبل الحديد الراسخ في تفاهته يود ترميم نفسه المتداعية، أصيب بالتوتر فصارت مهزلة مداراة بصيرته العرجاء. يجب علينا مجابتهم هكذا قال، ألا تذكرون يوم أن ضرب مصنع الأدوية، هؤلاء الكفار لن يتركونا وشأننا، لنجهز أكفاننا تلك كانت الرسالة.

كثرت الإختلاسات بعد الضغوط الأخيرة، وصانعوا القرار أثروا من الفساد، ازدادت ثروتهم، هاهم يدربون الصقور على الصيد، غسيل الأموال والشراء السريع، وفقهاء يبيعون الزئبق الأحمر لاستحضار الجن. لم يجد عبدالباقي جبل الحديد الوقت لمطالعة كتب التاريخ، لم يستطع عبدالباقي رغم مرور السنوات تشكيل الناس حسب هواه، عجن الصلصال ونشر الجنود إلا أنه لم يمتلك ميول الناس وشاد بيوتاً من الرمال، ما لبثت أن طواها النسيان.

البلاد غارقة في العرق والدموع، المظاهرات تخرج ويقمعها النظام بقنابل البمبان، اختفت الطيور في أعشاشها.

تَوَجَّهَتْ الجماهير الغفيرة لمقر عبد الباقي جبل الحديد تود أن
توصل رسالة، فَرَّقَهُم العسكر. لم يرد لنشوته أن تتبدد. لقد عمل
الإتفاقات وأتى بالمساعدين والمستشارين والخبراء الإستراتيجيين،
لابسي الأحجة، رغم تناقضاته إلا أنه يعتقد بأن نجمه في صعود.

هذا الشعب الجاحد لم يخل عليه بشيء؛ مشاريع للتنمية شُيِّدَتْ،
إنجازات تقف شامخة، لماذا يود أعداؤه القضاء عليه. خياله الجامح
وعمله الخارق جعله يبدع في المشاريع ذات العائد السريع، هؤلاء
المتآمرون، القضية أضحت واضحة..

وطنيون وخونة.. لا شيء في الدنيا يمكن أن ينزعه من مكانه..

الناس عرفت حسابات البطانة الحاكمة في البنوك الأجنبية.

جنون النظريات والأيام المواتية والثورة الزراعية الخضراء. بدل أن
تركز على زراعة الذرة والقمح، زرعت أشجار الصندل والبصل المعدل
وزهرة دوار الشمس! المستشارون كفريق كرة القدم تحاشوا
المشكلات، تفوقوا داخل أبراجهم العاجية، بعد أن بكى الناس كثيراً
ها هو عبد الباقي جبل الحديد يبكي أخيراً.

استهانته بهذه الجماهير الصامته واللاصقة، استكانتهم مدى
السنوات، فتح شهية الطغمة المحيطة، تمددت وصارت تعلق كل شيء
وها هي أيام الفشل الكبير.

قالت زينب بلال إنهم سيواصلون خوارقهم معجزاتهم وأساطيرهم.

اللقدين الآن في حالة تعبئة عامة، وانتظر الناس خروج البترول ليعمهم الرخاء ولكن بطيبة قلب واصلوا انتظارهم.

لم يعرف الناس شروح الوزير وخططه وحساباته في تبرير الزيادات، أدرك الناس شؤم عبدالباقي جبل الحديد الذي يعتبرهم لا يفهمون، وأنه يمكن أن يمرر عليهم تخيلاته المتشابكة، أما المؤيدون فيقولون إن الناس جاحدين ماذا يستطيع أن يعمل لهم بمواهبه الثاقبة و(زوغانه) وغشه والصيد في المياه العكرة. حاول أن يستميل العالم الخارجي. وتلاشت الأحلام بالجنة الموعودة، فقد عبدالباقي جبل الحديد الرؤية الثاقبة بمرور السنوات. ولم تسعفه مواهبه الثمينة في كشف الحال المتردي، ومعاونوه في محاولاتهم الدنسة والمغشوشة لم يستطيعوا إبهار الجماهير.

اللقدين تعيش وكأنها في ظلام القرون الوسطى، ندم الناس على صمتهم ولم توقظهم الاشارات والاستغاثة لمواجهة الظروف الطارئة. وكان رد الرسالة أننا نرفض التدخلات.

أضحت البلاد في عزلة، لم يدرك الناس ما تخبئه الأقدار. وصار من الصعب التكهن بما يحصل، إلا أن توجد عصا سحرية تزيل ما علق من غبار، والمحفوظ من يجد ساعته تعمل.

رغم المبالغ الطائلة التي صرفت هنا وهناك إلا أن أحداً لم يشعر بالرخاء. فطومة القصب الأحمر القادرة على الصمود لم تضيع الفرص، صارت تقيم الحفلات ذات الموائد الضخمة، لا تود تنغيص

حياة زينب بلال التي عرفت كيف تروض خصومها إن كان بالترغيب أو الترهيب. فطومة قالت إن خلافات اتحاد الكرة يمكن حلها بتنجيل ساحات الرياضة وعمل الإضاءة لها وتسجيل الناشئين في الحوارى وتدريبهم حتى ينافس فريقنا القومى فى بطولات كأس العالم.

يا لهذا التردى فى كل شىء! النسوة اعتبرن كلامها فارغاً، إن لم تدعم كرة القدم النسائية حتى لا يترهلن ويختفى منهن حكاك أوراكن. أن الرجال يحبون النحيفات، لم تلتفت فطومة لحديثهن.

الإستقرار ذلك ما تنشده زوجة عبدالباقي جبل الحديد؛ لذلك سارعت بأخذ الفكرة التي روجت لها بإنشاء ميادين رياضية للنساء، حتى تأتي فرقهن بالجوائز التي عجز الرجال عن الإتيان بها.

شريك عبدالباقي جبل الحديد أنهكه السفر وحفلات المجاملات، وليؤثر السلامة اعتمد على الضمانات، وها هو يحاول أن يذوب جبل الجليد مع شريكه المشاكس. فرحه الغامر أن لحظات الجنون على مشارف الإنتهاء، همه أن يحصل على بعض الفوائد قبل أن ينهدم البناء، عبدالباقي جبل الحديد الشحيح لا يهتم إن انفصل الشريك ما دام هو مشغول بترتيب بيته الداخلى. المهم تنظيم جيش قوى قادر على المواجهة، ازدادت النزاعات الجهوية، والمهمشون ينظرون من بعيد، ذقون خيبة الأمل طالت، والمغالطات التي ضاق بها الأصدقاء قبل الأعداء. ما يحدث الآن ليس مفاجأة لأحد. زينب بلال قالت: لو أنشأ علاقات طيبة فى الماضى لاستطاع الخروج من هذا المأزق.

زوجها من أوقف إثارة المشكلات، وبعد موته بزمن قصير أطلقت زينب بلال سهامها وانجذبت لزوج ابنتها ملكة رغم صمته ورؤاه الفلسفية.

من فائض القيمة أن يتحدث الناس في اللقدين عن حكمة ملكات السودان القديم، الكنداكات اللاتي حكمن الجزء الشمالي من البلاد.

استولى الإسكندر الأكبر على مصر، بعث رسالة إلى الكنداكة ملكة السودان يقول فيها:

"لقد علمنا أنكم حكمتكم مصر قبل مجيئنا إليها، وأنكم لما خرجتم منها استوليتم على كنوز الذهب والزرجد وغيرهما من المعادن النفيسة التي توجد في أقصى جنوب مصر، وبما أن مصر الآن من أملاكنا فإني أطلبكم بإعادة كل ما استوليتم عليه من تلك الكنوز.

كانت كنداكة سيدة واسعة العلم، معروفة بالحكمة والعدل وحسن التصرف، ولما جاءتها رسالة الإسكندر جمعت المال من قومها للشورى في الأمر على عاداتها وعادة ملوك السودان القديم قبلها، فاستوثقت من تصميمهم على الحفاظ على أرض المعدن التي لا يشكون قط أنها من الأملاك السودانية (دولة كوش) وأنهم لن يتهاونوا في مواجهة الإسكندر إن حدثته نفسه بالتقدم بجنوده إليها. ثم طرحت عليهم رأيها فوافقوها على أن ترسل إليه رداً مهذباً وقاطعاً ترفض ما ادعاه وترد طلبه، فكتبت إلى الإسكندر رسالة تقول فيها:

"إن كنوز الذهب والزرجد وسائر المعادن النفيسة ليست في أقصى جنوب مصر، كما حسبته أو صوره لك بعضهم، لكنها في أقصى شمال السودان، إنها أملاك سودانية لا يسعني التنازل عنها وتسليمها لك."

ثم إن كنداكة بعثت إلى الإسكندر مع تلك الرسالة بهدية ثمينة ودست بين سفرائها إليه رجلاً موهوباً في فن الرسم، وطلبت منه أن يرسم لها صورة الإسكندر مطابقة لصفته، على أن لا يطلع على تلك الصورة أحد كائناً من كان ويسلمها لها شخصياً يداً بيد.

ولما وصل سفراء كنداكة إلى بلاط الإسكندر وأطلعوه على ردها وسلموه هديتها رد الهدية وأظهر الغضب الشديد لرفضها طلبه بتسليم أرض المعدن، وظن أن الفرصة قد حانت لبدأها بالحرب فيستولي على ما أراد، فكتب رسالة شديدة اللهجة يقول فيها:

"أنا الإسكندر الأكبر ذو القرنين، ملك الدنيا من مشرقها إلى مغربها، فاتح بلاد فارس وقاتل ملكها العظيم (دارا)، وفاتح بلاد الهند والسند وقاتل ملكها القوي (فور)، وأعلمي أنه لا يحول بيني وبين ما أريد أحد من الخلق مهما كانت قوته، ولا تقوم بحربي امرأة مثلك أو تمتنع علي بلاد كبلادك، فأذنوا إن لم تسلموا لي تلك الكنوز بحرب شعواء لا تجنون منها إلا الذلة والصغار."

ثم انطلق مع سفراء كنداكة سفراء ذا القرنين حاملين إليها رده العنيف والعنيد الناطق بالتهديد والوعيد. وكان رجليها الموهوب في

الرسم قد أعد في تلك الأثناء صورة تطابق صفة الإسكندر التي رآها وتدبرها جيداً حين وقف أمامه، وطوى الرجل الصورة وأخفاها حتى عن زملائه في الوفد. فلما عادوا إليها سلمها يداً بيد فدستها في خزانها الخاصة، ثم اطلعت على رد الإسكندر فلما رآته لا يريد إلا الحرب كتبت إليه تقول:

"لسنا كما تظن، نحن أعظم من دارا على ما وصفت من عظمته، وأكبر قوة وحنكة من (فور) ملك الهند على ما رأيت من قوته وحنكته، ولا تحسب أنني حين بعثت إليك بتلك الهدية كنت خائفة من سطوتك أو طامعة فيما عندك، لكن رأيت أن الرفق أوفق الحالين.

وأن السلم أحسن عاقبة فإن أبيت إلا الحرب فهلم إلينا، فإنك لن تجد منا إلا بأساً شديداً، ولن تجني من حربنا إلا الخسارة عليك."

ثم خرجت كنداكة بكامل جنودها في أثر السفراء الحاملين ردها الأخير حتى ضربت معسكرها في الأطراف الشمالية لبلادها تاهباً لملاقاة ذي القرنين. إن حدثته نفسه بغزوها. واتفق في تلك الأثناء أن ابنها الأصغر خرج من معسكره في رحلة صيد يروح بها عن نفسه، فداهمه جماعة من قطاع الطرق، وأخذوه على حين غرة فاستولوا على جميع ما معه. وأخذوا زوجته ونساء حاشيته سبايا. أما الأمير نفسه فجلبوه لبيع في أسواق الرقيق بمصر، تعرف بعض جند الإسكندر على الأمير الصغير ابن كنداكة المعروف للبيع في سوق النخاسة،

فأخذوه وجاءوا به إلى القصر الذي كان ينزل فيه الإسكندر مع أكابر قواده.

واتفق حين وصولهم بالأمير إلى القصر أن الإسكندر نائم، فأطلعوا نائبه وكبير قواده بطليموس به، فاستجوبه واستيقن أنه ابن كنداكة حقيقة، وتأكد من صدق روايته بأن قطاع الطريق أخذوه على حين غرة وجلبوه إلى مصر. أبقى بطليموس الأمير عنده حتى إذا استيقظ الإسكندر، قام ودخل عليه وقال: إن ابن كنداكة ملكة السودان، التي تريد حربها يا مولاي قد وقع أسيراً في قبضتنا، وقصّ عليه الخبر بتمامه، عند ذلك صرف الإسكندر كل من كان في حضرته، وأغلق على نفسه باب غرفته وأخذ يفكر بقية يومه ذلك وكل ليلة كيف يستفيد من هذا الأمير في مواجهة أمه. فلما كان من الغد، دعا ذو القرنين بطليموس وأمره أن يتنكر في ثيابه هو وأن يضع التاج على رأسه، ثم أجلسه على العرش مكانه، أما ذو القرنين فتنكر في زي بطليموس ووقف خلف العرش، مع سائر القادة كأنه واحد منهم، ثم أمر بإدخال الأمير المأسور، دخل الأمير فهاله أن يرى القائد الذي استجوبه بالأمس جالساً على العرش، فخر راکعاً بالتحية ثم رفع رأسه مخاطباً بطليموس المتنكر في زي ذي القرنين وقال: "أعذرني يا مولاي فقد ظننت أمس أنك بطليموس القائد ولو كنت أعلم أنك ذو القرنين لضاعفت من إكبارك، وقابلتك بما يليق من التحية والتجلة."

فقال بطليموس المتنكر في زي الإسكندر . مخاطباً الأمير الصغير: لا عليك، لعل من حسن الصدف أن تقابلني البارحة في زي القادة فلا تعرفني، حتى تنبسط في الحديث إلي دون خشية، أما وقد عرفت قصتك كاملة وتحققت من صدق ما أخبرتني به من أمرك، فلعله يسعدك أن تطلع على ما قد قررته بشأنك. نحن معشر الملوك، على اختلاف بلادنا وأحوالنا ينبغي أن نتعامل في رعاية المكانة والحق والحضانة كما لو كنا أسرة واحدة، عليه وإن كنا على حافة الحرب رأيت أن أعيدك إلى وطنك سالماً مكرماً. ولا ينبغي لمن هو في مثل مقامي أن يرى أميراً مثلك مسلوباً من قبل اللصوص والمارقين، مهما كانت الحال رأيت أن لا أعيدك إلى ديارك إلا بعد أن آخذ لك حقلك من قطاع الطريق وأن أرد إليك زوجتك وسائر ما أخذوه منك. عقب هذا الكلام التفت بطليموس المتنكر في زي ذي القرنين إلى الواقفين حول العرش وقال: أريد أن أنتدب أحدكم للإضطلاع بمهمة رد هذا الأمير إلى بلده في سلام بعد أن يأخذ له كامل حقه من قطاع الطريق، إنها لمهمة دقيقة وعسيرة فمن لها؟

عند ذلك قال ذو القرنين المتنكر في زي بطليموس القائد: أنا لها يا مولاي إن أردت أن تبعثني، وأذن لي بأن اختار بنفسني ألف فارس مغوار أقتحم بهم الصحراء في مواجهة الخوارج قطاع الطريق فاسترد للأمير حقه ثم أقوم معهم على حراسته حتى نعيده الى أرضه سالماً،

فقال بطليموس المتنكر في زي ذي القرنين: لك ذلك أيها الفارس
فاختر جنودك بنفسك.

انتخب ذو القرنين . المتنكر في زي بطليموس . ألفاً من أكفأ جنوده
الإغريق وبنى أمره على أن يدخل بهم مدينة كنداكة مع ابنها ثم يستولي
عليها من الداخل، فسار في ملاحقة الخوارج أولاً وما كاد يصلهم حتى
هربوا أجمعين من وجهه تاركين وراءهم كل ما أخذوه من الأمير
الشاب، بعد ذلك توجه ذو القرنين المتنكر في صحبة فرسانه مع
الأمير وحاشيته، حتى دخل بهم مدينة كنداكة حيث كانت تضرب
معسكرها استعداداً لحربه، وكان الأمير قد بعث بالبشارة بخلاصه إلى
أمه، فخرجت وخرج أمراؤها وأكابر دولتها وسائر قومها لملاقاة الأمير
فرحة بقدومه سالماً. وضربت الطبول وأقبلت الأم على ولدها تعانقه،
وأقبل الأمراء إليه يهنئونه بالسلامة، وذو القرنين قائماً بينهم متنكراً لا
يحسون به. ولا يخافون منه بأساً، فخطبهم الأمير قائلاً:

"لا تشغلکم الفرحة بقدومي سالماً عن مقابلة هذا البطل الإغريقي بما
يستحقه من الكرامة فإنه ندب نفسه دون ذي القرنين لمناصرتي
واسترد لي حقي وعاد بي سالماً إليكم."

فأقبلت كنداكة على ذي القرنين المتنكر شاكرة حامدة له حسن
صنيعه ووعدته بالمكافأة. وأقبل عليه أمراؤها شاكرين مقدرين بطولته
وشهامته، ثم أمرت كنداكة بإنزاله هو وجنوده في منازل الضيافة كل
حسب مقامه، وأن يبالغ في إكرامهم.

في صبيحة اليوم التالي ظهرت كنداكة في أفخر ثيابها واضعة التاج على رأسها، فجلست على عرشها ومن حولها أمراؤها وأكابر دولتها وسائر حاشيتها، ثم دعت القائد الإغريقي لتقبله مقابلة رسمية تشكر له فيها حسن صنيعه ولتبعث رسالة معه إلى ذي القرنين سيده تشكره على رد ابنها اليها سالماً وإن كانا متخاصمين. ما أن رأى ذو القرنين المتنكر كنداكة في تلك الأبهة حتى راعه جلالها ووقارها وتذكر بها أمه الملكة هلين فلم يتمالك أن بكى وكاد يفضح أمره لولا أنه تنبه على صوت كنداكة تسأله: ما بك أيها القائد، ما يبكيك؟ فقال: دموع فرحة يا مولاتي، إنها لسعادة ما بعدها سعادة أن أقف هنا تكرمني من هي في مثل جلالك، وأمتع طرفي بالنظر إلى وجهك الكريم، وأطلع من حسن طلعتك وهيبة وقارك ما لو رآه ذو القرنين نفسه لاغتبط به أشد الغبطة. فسرت بذلك الجواب منه سروراً بالغاً ثم أمرت الملاء من قومها أن ينصرفوا أجمعين، وأمرت بأبواب القاعة أن تُغلق حتى إذا لم يبقَ أحد يراهما أو يسمعهما بادرتة قائلة:

يا ذا القرنين أنا كنداكة. فقال: مولاتي لست ذا القرنين إنما أنا عبد من عبيده وقائد من جملة قواده، فجعلت كنداكة تضحك ملء شديها، فقال في أدب شديد: هل تطلعي مولاتي على سر ضحككتها؟ فأجابته كنداكة يا ذا القرنين هل تظن أنك خدعتني اليوم، وأخرجت له الصورة التي كان قد رسمها له فنانها قائلة: لقد عرفتك متنكراً أول لحظة رأيتك فيها. ولم يدر ماذا يقول وأحس مرارة الإخفاق حين علم

أنه استدرج بحيلته، فتابعت كنداكة كلامها قائلة: ما رأيك الآن أنت الإسكندر الأكبر ذو القرنين مالك الدنيا من مشرقها إلى مغربها، فاتح بلاد فارس وقاتل ملكها العظيم دارا، وفاتح بلاد الهند وقاتل ملكها المحنك القوي فور، قد صرت في قبضتي أنا، قبضة امرأة، وأعجب ما في الأمر أنك سعيت إلى أسرك بقدميك وأخذت بذكائك. لقد كنت أتابع تدابيرك، وأدرس مكيدتك في كل حرب خضتها فرأيتك تركز إلى لطف الحيلة وإحكام المكيدة في كسب النصر والظفر بعدوك بالدهاء قبل المخاطرة بدفع الجند في ميدان القتال. ولكم تمنيت متعة نزالك في ميادين التخطيط وسياسة الحرب. أنا التي زينت لولدي الخروج إلى الصيد، وأنا التي أوعزت إلى رجال البوادي ليأخذوه على غرة ويجلبوه إلى مصر تحسباً لمثل هذا الموقف. ومن قبل بعثت المصوّر وأمرته بإعداد صورتك التي لم يطلع عليها أحد سواي.

أخذ الإسكندر حين قامت كنداكة تلقي على مسامعه ذلك الكلام يضرب جبهته بقبضته، ويعض على شفثيه في غيظ شديد، فقالت له كنداكة: ما كل هذا الغيظ والأسف؟ فقال لها: إني الآن آسف على شيء واحد، قالت: ما هو؟ قال: إن سيفي ليس معي الساعة. قالت: ما كنت تصنع به؟ قال: أقتلك به أولاً ثم أقتل نفسي. قالت: وماذا تفيد من إزهاق نفسي ونفسك؟ هذه أيضاً ذلة محسوبة عليك، أما أنا فبمقدوري الآن أن أصفق بيدي فيدخل رجالي وفي أيديهم السيوف القواطع ثم هي كلمة مني وأنت في عداد الموتى. لكن لن أفعل بك

هذا لقد أحسنت إلي إذ رددت إلي ولدي سالماً. فقال لها: كفى تهكماً تعلمين الآن ومن قبل أني ما جئت إليك بولدك إلا مكيدة أرمي بها إلى قهرك.

فتجيبه كنداكة: إني لا أتهمك، أنت قائد كبير وملك عظيم سأرسلك حراً لتعود إلى مملكتك مع فرسانك المغاوير؟ ولن أفشي سرك للرعية. أجل سأعطيك الحرية والأمان بشرطٍ واحد..

ذو القرنين: أنت الرأس المُتَوَجُّ الوحيد الذي غلبني في الدهاء فما شرطك؟

كنداكة: أن تكتب بيننا عهداً تقر فيه بسيادتنا على كامل أرض المعدن،

قال ذو القرنين: قد قبلت.

الآن وأنت تزيل الغبار من أحداث مرت عليها ثلاثة قرون. لولا اندفاع عبد الباقي جبل الحديد ونقله الهياج للجماهير لرسم المستشارين صورة للوضع بكل الحذق والدقة مستلهمين خبرة آلاف السنوات التي استوعبتها ملكات مروى من العهد القديم. أننا لا نواصل تراثنا بالدقة المطلوبة، وئدت تجارب مروى في صناعة الحديد والهندسة الزراعية. أخيراً نطقت فطومة القصب الأحمر وهي مصابة بالدهشة لا يهمنا كثير شيء! بجرأتها فطومة لمست شغاف القلوب، وأطلعت زينب بلال على خطط الحرب، إصدار المراسيم وغرابة عبد الباقي جبل الحديد وتقلبه.

من الأصالة أن نثبت على رأي واحد، انتشال الجماهير من جمودها والقيام بنشاط سياسي كبير وتفعيل دور المرأة بدل انشغالهن بوضع الحناء واستعمال دخان الطلح.

قد يهبطون في اللقدين بعد ليالٍ. لننير الدروب والطرقات. الشريك لا يرغب في الانفصال ولكن إن اضطرت الأحوال سيمد يده من تحت الطاولة.

الخوف أن تصطدم المخططات بالعواقب. زينب بلال تعرف اللعبة وبنظرها الثاقب أمسكت كل الخيوط المهم أن نهذاً، نخفي الهزيمة ونرمم الأزقة المغبرة والمتعرجة حتى ترقزق عصافير الخريف وتطير الى أعشاشها بأمان. لا بد من إيقاف البذخ والتكشف. لا تصدقون ما يقول به العالم الغربي. هدفنا أن نوقف بشاعة التصرفات وأن نتمنطق بالحكم، الناس يحسون بالكابوس الجاثم عليهم. الآتي دائماً مفرع.

وعبدالباقي جبل الحديد لن يكون وحده الضحية، سيموت ناس كثيرون، متى يستيقظ النائم، كثير من القصص نُسجت، الجماهير المحرومة من الماء النقي، العلاج والتعليم، العمارات الزجاجية تُشيد في اللقدين، تمددت الشوارع والناس كالأشباح، تملق القلة، عبدالباقي جبل الحديد أصبحت حساسيته شديدة للنقد، الميزانيات كلها تذهب للدفاع ذلك ما يكفي الناس سنوات عديدة، هناك ظلم فادح لنعدله.

موت الشريك المفاجئ جعل عبدالباقي جبل الحديد يتخبط في عزلته،
تناقض حالته جعله ينظر برؤية تهريجية للعالم.

زينب بلال تضخم الحكايات وتحكي عن ذاكرة مفتتة لأيام كأنها
عاشتها وتستعرض أدق التفاصيل، شيطانها يحب العطور
والإستعراضات والملابس الملونة والتفاخر.

ملكة تعتبر عابدين ابو جميلاً رغم التشويه في أنفه، وهي تتمسك
به خوف أن يغادرها كأخواتها بنات زينب بلال اللائي يجري الحقد في
شرايينهن حتى النخاع، حطمت عابدين بجرفه لذلك الغرام محاولاً أن
يصحح لديها كبواته بما يخترعه من حيل وإبداعات. كم من المرات
ضبطته ملكة يتصفح المجالات الخليعة والمثيرة، يتلع الحبوب
المنشطة، يداري خشيته أن تقبضه متلبساً وهو المسحور بجمالها،
رغم غرابتها وعقوقها انطرحت ملكة على السرير ولم يتمالك عابدين
من تماسك أشواقه، صحيح أنه يرهبها ويخفي عنها صوراً له مع
حسناوات في البومه الخاص.

وحين دخلت عليه زينب بلال بكل فوضوية عمرها، كسته الدهشة،
سلم عليها بلطف، حدقت فيه وفهم الرسالة، ملكة تنهمر دموعها وهي
المخدوعة دائماً بالأعيب عابدين التي لا تنتهي، حبه للأشداق وقد
اعتنت بهن، وللنهود المرفوعة وقد جلبت لهما الضاغطات من سوق
المدينة. وساوت من نتوءات تضاريس أشيائها الداخلية، رفعت إليه

عينين كالفناجين، انجذب إليها كالأيام الخوالي وجاش في قراراتها حيث لم تعد كما كانت.

انفعالاتها هدأت، قالت: ليس هناك رجل واحد يماثل عابدين ابو أنتن لا تعرفه، شيئه الضخم وذاك الحنين يحرك الأحشاء، عندما يخرجها كالأشواك، عابدين ابو أصبح رائعاً لشرب الشاي بالحليب وروائح الكافور والصندل تشع من الغرفة، وانبثقت الضحكات مخلوطة بالحديث الهامس، ملكة صارت نشطة، غيابه الطويل غطاه في ليلة واحدة.

استولى الفرح الغامر على زينب بلال برهة، وانتهزت فرصة حماس ابنتها ملكة وطيرت حماماتها تحمل الدعوات لزميلاتهن البائسات وصديقاتها اللهفات تحكي لهن عن خربشات عابدين ابو حيث إن السنوات لم تستهلكه.

فظومة بدورها راحت تنتحب وتشكي لزينب بلال أساها وأنوئتها الطاغية التي راحت هدرأ، شهوتها المتأججة وزوجها الذي صارت تهيم طيوره تغادر الحديقة والصباحات الشتائية، لقد سافر لم يعرف الناس مكانه.

عبدالباقي جبل الحديد واجه أعداءً كثيرين ولم يتنازل عن شيء، وبعد أن أكمل المشاريع التي نفذها صار يكتب الروايات ويوظف حكاوي أجداده، يعطيهم الألقاب ويمجد دورهم البطولي وعبقريتهم الفذة مما أخرج الناس من سباتهم وصار لديهم ما يتلهون به.

دُهِشَتْ زَيْنَبُ بِلَالٍ بِعَزِيمَتِهَا الْقَاهِرَةَ وَنَفْسَهَا الْمُتَيْقِظَةَ أَنْ تَلْتَفِ
حَوْلَهَا الْكِرَاهَاتِ، يَجِبُ الْإِحْتِرَازَ لِتَجَدُّدِ هَوَاءِ جَوَانِحِهَا وَتَمَلُّاً حَيْضَانِهَا
بِالْمَاءِ الْعَذْبِ. وَرَاحَتْ تَرْبِي الْأَسْمَاكَ وَتَنْتَظِرُ بَزْوِغَ هَلَالِ رَمَضَانَ
وَتَفْتِشُ لِلْكَلِمَةِ الْمُنَاسِبَةِ لِنَعْتِ مُصْطَفَى.

زَيْنَبُ بِلَالٍ الْقَاسِيَةَ تَجْهَلُ فَحَوَى التَّرْمِيزَ وَإِنْ كَانَتْ مَشْدُودَةَ لِبَنَاتِهَا
بِحَبْلِ السَّرَةِ، تَعْرِفُ تَحَايِلَهُنَّ وَسَخْرِيَتَهُنَّ وَاسْتَهْزَائَهُنَّ بِالنَّاسِ.

زَيْنَبُ بِلَالٍ تَغْرِسُ نَخْلَةَ، وَتَشُدُّ حَبْلَ الْغَسِيلِ وَتَمَلُّ الْمَخْزُونَ
بِمَحَاصِيلِ هَذَا الْعَامِ، الْحَمُوضَةَ ذَلِكَ مَا يَجْعَلُ أَكْلَهَا فَادِحاً، وَهِيَ
الْفَالِحَةُ عَلَى طَرِيقَتِهَا، تَصْمَتُ أحياناً لِتَعَالِجِ اضْطِرَابَاتِهَا الْمُنْعَكِسَةَ مِنْ
رُؤْيَةِ الْخَيْرِ عَلَى الْآخِرِينَ. وَعِنْدَمَا تَسْتَغْرِقُ فِي السَّكُوتِ ذَلِكَ يَعْنِي أَنَّهَا
تَحَاوَلُ جَعْلَ السِّيْنَارِيُو مَقْبُولاً لِشُرُورِهَا الْمَعْشَعِشَةَ فِي رَأْسِهَا وَهِيَ
سَخِيَّةٌ فِي كَشْفِ مَعْدِنِهَا. تَتَصَنَّعُ الطَّيْبَةَ وَتَنْتَحِلُ التَّهْذِيبَ.

لَقَدْ أَنْشَأَتْ حَقْلَهَا الْفِرْدُوسِيَّ عَلَى رُؤَاهَا، أَجْمَلُ أَيَامِهَا خُصُوبَةُ الْآنِ.
انْدِفَاعُ آرَائِهَا وَمَسْعُودُ الْبَاهِتِ يَدْعُمُ ذَاكِرَتِهَا الَّتِي بَدَأَتْ تَضْعَفُ، رِيَاحَةُ
السَّاخِنَةِ وَالْمَشْكُوكَةِ، تَفَلَّتْ أَعْصَابُهُ وَهُوَ الَّذِي لَدَيْهِ حَسُّ فِطْرِي
لِلْمَشَاكِسَةِ، يَنْهَمُكَ كِعَادَتِهِ فِي إِعَادَةِ صِيَاغَةِ الْأَيَّامِ الْخَوَالِيِّ، يَخْلُقُ
فَزَاعَاتِهِ.. يَرْمِمُهَا. اسْتَبَدَّتْ بِهِ الشُّرُورُ كَادَتْ أَنْ تَسْحَقَهُمْ لَوْلَا أَنَّهُ يَلْعَقُ
أَصَابِعَ النَّدَمِ، بَعَيْنِيهِ الْمَتَوَقِّدَتَيْنِ. حَاوَلَ تَجَنُّبَ نَظْرَاتِهَا.

غادرت الفئران اللقدين. لا بد أن أمراً خارقاً قد أوشك على النزول،
التوتر تجده هنا وهناك. مهازل نغصت على الناس عيشتهم. تولدت
الخرافات، تشائم الناس، غشاوة كست الوجوه.

وأنت ترى أبيك بعينه النافذتين وهيئته الموقرة، طالت غيبته، أخيراً
لم يظهر لك، حديثك عن دهائهم، وعن الرعب الذي أدخلوه في
النفوس، وعن أن الناس صار دينهم المال ولا شيء غيره. حاول أن
يمارس تأثيره عليك ليقبل هيجاناتك ومزاجك المتعكر هذه الأيام.
النساء صرن يصفعن أزواجهن، فاطمة علاقتها بزوجها أضحت فاترة،
وهي التي كانت متعلقة به، انتهت أيام العذوبة الأولى، لماذا لا تثبت
الأشياء على روعتها. زينب بلال وصفتك بالغباء حيث إنك لم توظف
مواهبك لكسب النقود.

ومسرور عديم الحياء يلجم شهوته، يكبح رغبته، يتمالك نفسه،
يشعر أنه يطير في السماء. تفوق عليك أنجز كل مهامه عندما تخلص
منك. زينب بلال كأنها لا تكبر رغم التغيرات الجذرية التي توصلت
إليها، واضطرت لتغيير أساليبها لتواكب الزمن. والدك ألقى نظرة أخيرة
عليك وغادر، ولكي تتجنب مخادعات زينب بلال آثرت العزلة.

عبدالباقي جبل الحديد طلب ذات صباح مشرق من زينب بلال أن
يتصالحا خاصة وأنها أخت زوجته من الرضاعة، وأسمعا شعراً رديئاً
عرفت منه أن عبدالباقي جبل الحديد منهمك في تغيير العالم، ويحاول
جهده أن ينظم الحديقة ويضطلع بمسؤولياته المتداخلة.

قال لها: الخونة، لم أعد خائفاً منهم، وها هي الأيام تثبت يقظته، وإن اكتشفت وسائله رغم أنه ما زال يعاني من إشكاليات تصريحاته المربكة، قال لها إنه سيأتي بالرخاء، ولتوضيح المسألة اتخذ ذلك زمناً طويلاً، ما عاد الناس يصدقون وعوده. نعيم الأجواد الذي أتى به أخيراً نجى من شروره بأعجوبة.

عيل صبر طه الأبيض وهو يرتجف من الحمى حزناً على ما صارت إليه الأمور. حيرته المتشابكة سببها زينب بلال وهي تجمع حلفائها لذلك اليوم المشهود حيث قررت مناظرة عبدالباقي جبل الحديد. نعيم الأجواد، لا يلتفت لتقلبات زينب بلال ولكنه يعتبر أن بدور هي من تشحنها حتى تحلق طيورها في سماوات اللقدين. وتقدم إليها النصائح، وتعرف نقاط ضعفها وتبناها للجواسيس المتملقين، وأنت بقداستك أيتها الأم المبجلة لا تقربهم منك.

حميد ابن مسعود مثل والده الخالق الناطق. له نفس رائحته، ولديه صلف جدته وانتقامها، بفضل قدراته الغريبة ومواهبه استطاع أن يهزم الصغار في القتالات التي تتم في الساحة. يعرف أين تخبئ زينب بلال قطن الطمث، وملاقط شعر الحواجب، ويشتم روائح البخور ويتقاسم مع أبناء خالاته الوجبات التي تعدها بدور.

زينب بلال تريد لحميد أن يتعلم الطب حتى تشفى من آلام المصران والقرحة التي تنتابها، وكانت تخشى سرطان الثدي، وتخاف من مرض السكري وضغط الدم.

كانت جماهير اللقدين تضحك على عبد الباقي جبل الحديد الذي فشل في منع الأجنب من دخول البلاد. ولم تنفع تعاويذ الفقراء ولا قارئ النجوم أو ضاربي الرمل من إيقاف الخطر الداهم.

- قالت زينب بلال عند ظهور السيف في السماء ستحدث معجزة وأشياء رهيبة. الوضع يوشك على الانفجار إن استمرت الألعاب البهلوانية.

- هناك صناعات للأسلحة تمت في اللقدين.

تغير الوقت وتقدمت الساعات ساعة من الزمن. قُصَّت أجنحة الأعداء. صار الناس يرسلون النكات بواسطة الرسائل القصيرة. كبار السن لا يعرفون تشغيل الهواتف الجواله. المؤرخون بدعوا في كتابة التاريخ وصارت الأيام ثقيلة والنوايا السيئة غُبات بالجنون. حكام القبائل المجاورة ينصحون عبد الباقي جبل الحديد بالأخذ بالإعتبار كل ما هو متوقع ليجنب شعبه مغبة اقتتال لم يستعد له.

هو مشغول برتق الخيبات التي أذلته وللوصول لمبتغاه ذاك ما دونه خرت القتاد. أهل اللقدين يسكنون بهذا الركن المعتم من أقصى العالم. عمَّهم النسيان مما جعل عبد الباقي جبل الحديد يتبختر ويفتح مصانع الكيماويات والمعامل الذرية للأغراض السلمية.

أهل اللقدين يحلمون مع ذلك بزراعة أراضيهم وبحدائق الزهور التي يستريحون فيها ولكنهم أدركوا أن الحدائق الجميلة لا بد لها من بطون شَبَعَة مليئة بالطعام. الواقع الملموس ينفي هذا الحلم والحياة ليست

كلها أحلام. الصامتون الحردانون هؤلاء هم من حيروا عبد الباقي جبل الحديد. لا يبرهنون ببساطة عن نواياهم.

ماذا يريدون؟ الشك من هذه الفئة الصامتة أقلق نوم عبد الباقي جبل الحديد. قال له نعيم الأجواد: لا تحكم بالمظاهر. ولا ترعجك المظاهرات عديمة الجدوى ولدينا كتائب الظل، إن لم يكونوا معترفين بك لما رفعوا لك المذكرة تلو الأخرى.

نعيم الأجواد حلل الأمور بصورة مكتملة مما أربك خطط زينب بلال التي شتمت دون سبب الناكرة، وحامت الشكوك حول مسعود الباهت الذي لم يسره الصراع بين والدته وبدور.

بدور تحب تربية القروود والأبقار وتقول إنها ستساهم في المعركة القادمة. إن الأبقار والحمير والقروود يمكن أن تفجر الألغام التي يتركها الأعداء.

سخرت منها زينب بلال وهي تستقبل طه الأبيض حيث انشغل الناس في الحوارى والميادين بلعب كرة القدم. وبما أن زينب بلال لديها فريق كرة قدم في منزلها، حيث أعدت وجبة دسمة لظه الأبيض. كرة القدم تلهي الناس من الإنشغال بالسياسة. وكل الحكم والأمثال تشجع على الرياضة؛ "الجسم السليم في العقل السليم" وهلم جرا. ولو كان عبد الباقي جبل الحديد يلعب كرة القدم لما صار طاغية بقراراته.

البنات يغنين لود الغرب، وما في ذلك من إشارات فيها السلطة
والمال والفحولة.

نعيم الأجواد اجتمع بالعلماء والفنانين والمثقفين؛ أخذ رأيهم في
إيقاف هذا التدهور الذي يؤدي لخراب اللقدين، قالوا له: إن الحقد
والإحتقار يؤدي باللقدين للخراب، لا بد من تحرك المشاعر والأخلاق
والمباديء. ثم أرددوا أن الطغاة لا فرق بينهم وهم دليل شؤم على
الشعوب. الصراع بينك وزينب بلال لم يعد خافياً. نقطة ضعفها
الوحيدة حفيدها، هي بشموخها استمعت اليه وهو يواصل المديح، يا
للخسارة، أن تشابكت بنية حميد الوراثة مع جده.

التاريخ ذلك ما يرهق زينب بلال، وفي أثناء فيضاناتها تحلم بالموت
وبأولادها الثلاثة عشر وبمسعود الباهت وكرهها لمراقبة الرسائل. وبما
أنها فقدت إحدى بناتها وأضاعت زوج أحب بناتها إليها إلا أنها كانت
تتباهى، ربّت أسرة تعرف كيف تصيد السمك، وكيف تراقب خصومها
بحواس خارقة وذاكرات لا تنضب، وهي في حماسها تتسلح ذاكرتها
بالخرافات وتستدعي احتياطي الشرور، تتصرف على هواها، وتقول
إنها ولية مقدسة تموت في حب ود ضيف الله.

في تلك الأيام انشغل الابن البكر مسرور بتعليم أبنائه ودروسهم
الخصوصية وكيف ينجيهم من التدريبات العسكرية. ويوم دفن الوالد
تذكر مسرور عديم الحياء خصوماته الخيالية وكراهياته وولعه بالتناقض
والمفارقات، وحاول أن يستفيد من مساعي أمه في التقرب لعدد الباقي

جبل الحديد وأن يبعد أصهاره المنافسين بالضغوط، وهو المتأرجح في اتخاذ القرارات، مَهَّدَ لذلك بالإشاعات والأقاويل لتعوض تماسكه وما يكنه من حقد لأبناء أخواته، حيث انتفخت بطنه ولم ينفعه استعماله للمراهم ولا شرب مرق الدجاج في أن يعود لطبيعته، وها هو حميد يثير عليه كثيراً من الغبار. صار مسرور يتقياً ويقذف كل ما في جوفه. اطلعت فاطمة على حالته وكانت اللقدين كلها قد عرفت تواطئه وتكتيكاته وطيوره الزرقاء وعينيه الخائنتين وهو يحادث عابدين ابو الذي ينفذ تأمراته.

التبست الأمور على اللقدين وهي تتابع الخيال الجامح للسينمائيين وهم يعرضون فيلم (البؤساء). أغرب ما في الأمر أن الموضوع منطبق تماماً عليهم، رأوا التفاهة والفقر تسحقهم وهم يشاهدون اللقطات.

المعاني لا تتجزأ، وها هم أهل اللقدين يشاهدون الفيلم، المشاهد كلها ما بين اليقظة والنوم، الديكور، الأحداث والصور أصابتهم بهزات. هل بلغ الوضع هذا الحد من السوء.. لم يفكوا الخوارق والطلاسم، الخيانات والحيل، التدجيل والسحر والفنيات الخارقة وتعقدها، إنهم يرون البؤس والشقاء.

انبهروا، أصابهم الإندهاش، مسعود الباهت يحكي لملكة وفاطمة، زينب بلال اتهمت الأجانب بأنهم وراء كل أحداث اللقدين، وضلوعك في هذا الأمر يعني أنك نلت عمولة كبيرة.

أن تأخذ بزمام المبادرة وتحضر الأعوان لعبدالباقي جبل الحديد، اضطرت للتخلي عن المبادئ والدخول في لعبة مع عبدالباقي جبل الحديد تلك خطورة! لقد بثوا الرعب في الدجاج وأسماك النهر التي سممت بعد أن دلقوا شراب البيرة المركز على النهر. ازدادت إناث الأسماك شبقاً مما جعلهن يطاردن الذكور، تقيأت القطط وصارت الطيور المنزلية أكثر عدائية. المشاهد الجريئة في فيلم البؤساء حفظها الناس وتدافعوا لمشاهدة الفيلم مما جعل نوم الناس مضطرباً.

أوقف نعيم الأجواد تصوير الفيلم كي لا يؤثر في الناس لو عرفوا الحقيقة أن المهمشين هم أكثر رواد الفيلم، يراود أحلامهم ويصدم الأغنياء، وفي ذات أمسية اغتيل غدرًا أحد المشاهير. أصيب أهل اللقدين بالروع أمام تلك المحن، رياح السموم بدأت تهب، لا أحد يجرؤ أن يقول الصدق، تزييف الحقائق وإخفاؤها. هناك من يود إيراد اللقدين الهاوية.

زينب بلال لم تصدق أن اللقدين تطير على أجنحة خرافية، وعبدالباقي جبل الحديد عاش أدواراً متقلبة وهو في قفزه للحواجز يحطم كل شيء، عجز عن استبدال الواقع.

مسعود الباهت، تحيزه لتزمت زينب بلال وتناقضاتها جعله يغرق في بكاراة الأحداث السياسية، والظاهر أن الأمور لم تنضج بعد، وأهل اللقدين بتوجههم لرفض السيطرة الماكرة وبحثاً عن استقلالهم وحریتهم قدموا كثيراً من التضحيات.

حميد يشحذ المتناقضات في أوساط الناس إنها القيامة لا بد قائمة. ومن الغرابة إن لكل أسبابه، الإصلاح وإرجاع من خانوا إلى مبادئهم. قم بالتشذيب والتهذيب، أعد حكاية القصة دون تهويم كالذين أفرطوا في الشرب.

بدور السخية تبكي وهي تحكي للناس الناظرين من ثقب الباب أنهم قادرون على إضاءة العالم. فيلم البؤساء قلب إحساسنا بالواقع، قالت فاطمة: فلنقاوم الخرافة وننظم الأشعار بحب الوطن ولدينا تاريخ ناصع في البسالة، الأجانب لا يعرفون عنا شيئاً ولكننا لا نرضي لشعبنا أن يلفظ أنفاسه تحت نير القمع.

زينب بلال حاولت أن تخرج أهل اللقدين من غيوبتهم، لم يكثرثوا لغيابها، لقد دخلت الخلوة وحاولت التخلص من أوهامها ولكنها تحتفظ بعزتها وفي فكرها البحث عن مخرج.

لقد وضع عبد الباقي جبل الحديد النار في الفتيل ولم يكفه أنه أدخل اللقدين في نفق مظلم عند هبوط الليل.

زينب بلال حاولت أن تبعد أهل بيتها عن انتقام عبد الباقي جبل الحديد وأنها تمسك عليه بعض أسرار أيام الشباب التي لا تروح هدرًا. أوما برأسه لها بمعنى أنا متفقون، واستأنفت المفاوضات، إعادة النقابات، حرية الانتخابات، حيث إن الأزمنة تغيرت ولم يعد أهل اللقدين كالسابق يمكن سوقهم كالنعاج. ذهبت زينب بلال عنه راضية وراحت تشتغل بمزارعها وتربية أبقارها ورعاية أبناء بناتها العديدين.

كانت تتفنن في عمل الأطباق والطواقي وتهذيب الزهور، وتداعب مسعود وابنه حميد الذي بلغ مبلغ الرجال، وصار وسيماً كجده تماماً. ظلت زينب بلال تحب حميد، من الذي يستطيع أن يتغلب عليه فحيله كثيرة، تعلمه للموسيقى والرياضة وكتابة الأشعار وتربية الطيور، مشاغلاته وضحكاته التي تنطلق في خط مستقيم.

من الذي يقوى على مقاومة أحاديثه ومواهبه العجيبة، مسعود الباهت الحسنة الوحيدة التي عملها إنجابه لحميد، عندما تتذكر مصطفى تتقياً أمعاءها وتصاب باليأس، الحقيقة أنه منذ أن غادرهم لم تسمع عنه، انطوت بذلك صفحة النسيان وتقلبات الحياة التي لا أمان لها. لقد عشن بعده حياة هنيئة.

زينب بلال تحمل ثديها الضخمين بيديها وتتأوه في كبرياء جمل، عشرون طفلاً أنجبتهم من مستنقعها، فراشاتها، طيورها، أسماكها، وشبقها وقرف بناتها، من أين تستمد زينب بلال قوتها؛ من عمها الكجور أم خالها الصالح، سراديب من الجهل والظلام والدموع. ولكي تجنب قطيعها الصغير مزلق الحياة ها هي وقد استعدت لعدة قرون، أن تحتل بجمالهن الخارق القلوب، وبلذة أسطورية أنشأت أوهاماً مهووسة تعيش آلاف السنين. جففت دموعها واضطجعت زينب بلال وهي تحكي روايات غريبة مستمدة من العهد القديم، لا تشعر بوخزات الآلام ولا تأنيب الضمير.

تروي لمسعود ومن بعده حميد. في عالمها الرعب والشهقات
والعويل.

ازداد قلق عبد الباقي جبل الحديد تجاه المخرج طلحة الشريف.
إنهم لم يخرجوا فيلم البؤساء كما يجب، صوروا الوجوه الكالحة
والإبتسامات الجامدة ولكنهم لم يأتوا بعمل خارق يمجد حضارة
اللقدين. كما أن الإضاءة لم تكن كما يجب. هذا فيلم (مسيخ) نطق
عبد الباقي جبل الحديد وأضاف: أين المعجزات والأعاجيب التي تأتي
بها كل يوم، المسألة تتعلق بالطبور الخامس، طلحة الشريف لم
يتمالك أعصابه حيث أنهم لم يوفرأ له إيراداً ضخماً رغم أن بلادنا
مأوى بالشموس والأنهار والأشجار والبنيات الباذخة والطيور المليئة
بالحيل.. ما أرب عبد الباقي جبل الحديد السحن المتهالكة والفقراء
الذين فارقهم الفرح، أين مظاهر الأبهة واللذة والحياة الحقيقة،
تفاهات، قال طه الأبيض اللقدين بأكملها ذهبت لمشاهدة الفيلم
الذي أتى الخواجات لانتاجه حيث إنهم لن يجعلونكم أبطالاً، كاد
يتبول في سرواله طلحة الشريف. مسعود الباهت في اندفاعاته الخطيرة
راح ينبه الناس للحظات الرهيبة الآتية، زينب بلال بمستنقعاتها الموحلة
تنشر الأوبئة من حولها وتستغل السُدج وتستعد للحروب على
طريقها، حفرت الأنفاق، شقت الطرق، زرعت الألغام وعملت
التمويهات.

كابوس الآن ملثف بالضباب في تلك الأزمنة، لم يعتقد أحد بجنون زينب بلال، هؤلاء الأفارقة من يثيرون المتاعب، لنروض الشعب، وإن لقي البعض مصرعهم سينجو الآخرون، وراحت تنسج من حكاياتها العجيبة نسيجاً.

أرسلت السلطات عساكرها إلى غرب اللقدين، اختارت أرض المعركة هناك حيث ترقد بحيرة من النفط واليورانيوم والنحاس. لا ترهبنا الحمرة القانية وتفجر الدم، سنناضل حتى آخر جندي فينا.. عبدالباقي جبل الحديد الطاغية يرقص على غناء زينب بلال المهووس وسط دوي الحناجر تمجيداً وتهليلاً. البذخ والشبق والطاعة العمياء والولاء الأجوف، وانفتحت في ذاكرة أيام عبدالباقي جبل الحديد الأولى، حيث الثقوب تطل على الجنون، توفرت الشروط كلها لينتفض أهل اللقدين على عبدالباقي جبل الحديد.

نعيم الأجواد يقول إن اللقدين صمدت ثلاث سنوات ومات نحو "300" ألف من سكانها غير أن كثيراً من القرى هُدمت.. واستمر الحداد عاماً بحاله بعدها عمل الناس على تنظيف الشوارع من الجثث، انفجارات سمعت يوم الجمعة الحزين.

لَبَدَ الناس تحت الأَسِرَّة، التبست عليهم الظلال وتداخلت الحكايات.

منهم من اختطف ومنهم من اغتيل، طلحة الشريف يصور الخديعة، لقد دُهِشَ لاختفاء كبار القادة، لم يدافعوا عن اللقدين، أين الأسلحة والراجمات، لنستعد للمقاومة.

الفيلم استهلك كل ميزانية اللقدين، والأحداث التي أرقتهم لم يتصوروها في الخيال، أحداث رهيبة تفتقت لشرانق، واللقدين صارت كقلب رجل واحد. النساء فقدن الحنان وساد الخوف، استأنف تصوير الفيلم وحاول طلحة الشريف أن يقف هذه المرة إلى جانب البسطاء الهزيلين، لم يعرف أحد ما آل إليه مصير عبد الباقي جبل الحديد. زينب بلال تبحث عن حميد وسط نيران المعارك، طه الأبيض هو الآخر لم يفعل شيئاً. تصله التقارير كل شيء على ما يرام.

عبد الباقي جبل الحديد يتجنب النظر لزينب بلال الغارقة في صمتها، لقد تاهت في الدروب منذ أمد بعيد.

وها هو عبد الباقي جبل الحديد يتحدث عن التوافه، لم يسمع تحذيراتها، الإقتراب من الحافة، الطقس الخانق، كل مكيفات الهواء لم تخرج عبد الباقي جبل الحديد من زنقته، والأيام تتوالد كشرنقة، ملكة قل شبقها فانكمشت على ذاتها تتمنى الموت.

وفاطمة القصب الأحمر في عزلتها فارقها الحلم، بدور لا زالت تضع المساحيق على وجهها، الخدم لا يعرفون ماذا يعملون. لم تجتمع العائلة منذ أمد بعيد، ومسرور عديم الحياء ينقب في إنائه عن أموال مخبأة. زينب بلال المتجمدة في غيبوبتها وأناقته

المنتقاة انزلت داخل ذاكرتها المعشوشبة ومدت كراهيتها وقرفها
لبدور التي أخافها أن تموت زينب بلال بكل وقارها وعزتها الآفلة
ونبلها، تفاهة أسرتها أصابتها بالذهول وتلك الرائحة العفنة تضخمها
بالعطور والبخور.

صارت تكثر من مناجاة أمها، وخيالها الفياض يأتي على ذكر كل
الموتى من الأسر. مسعود الباهت هو من يحمل الأسطورة..
أحضروا لها طست الماء وحولوا كرسيها الى النجيلة، أحضروا لها
أسماكها، وجهاز التسجيل تنطلق منه المدائح وآيات قرآنية
منتقاة.. صحن من ثمار الجوافة حتى تزيل رائحتها من أرقها، آثرت
أن تفضي لحميد آخر نصائحها ووصاياها وهي تعرف قدراته
الخارقة في أن يلعب دوراً خاصة وأن اللقدين قد وصلت لمنعطف
خطير.

طلحة الشريف يصور الفيلم على شاطئ النيل ويكون حذراً وهو
ينصت لمستشاريه. مزارع عبّاد الشمس والمناطق الطرفية بتعاريجها،
حاول أن يخفف التناقض الذي وجد نفسه فيه وكأنه معلق بين السماء
والأرض، تجاوز لحظات الرعب ونظف كل المناطق الداخلية حتى لا
يشعر عبدالباقي جبل الحديد بأي صدمة عند مشاهدته لفيلم البؤساء
وكيف أن الناس قاوموا الأجنب، كانت ملحمة حقيقية تعكس نضال
شعب اللقدين الباسل.

وأنت تتخيل نفسك كأبيك تماماً..

تأتي بالمطر في عز الصيف.

القضية أن سكان اللقدين المنحطين صاروا بمرور الزمن بهلوانيون يستندون على الأجانب لينوا لهم مجداً وتلك قصة أخرى، والأيام دوارة.

وأنت ما بين القدرة والمشية تحاول أن توظف النيام. لا تقلق فأهل اللقدين على ما يرام إن أحسن تنظيمهم. لنبعد الحكايات المزورة وأحاسيسهم المزيفة.. استغفلهم عبد الباقي جبل الحديد، حاول عمل جراحة تجميلية إلا أنهم غير قابلين للتغيير أو التبديل.

الحريات المطلقة، لا تغشك المظاهر الخداعة، لقد تنصل عبد الباقي جبل الحديد من كل التزاماته. ها أنت تود أن تقرأ المستقبل رغم أنك تعرف في مسائل الفن إلا أنك لم تكن حاقداً. المطر يمكن أن يأتي من السماء زمن الصيف، وخاصة تحريكك للأشياء لا أحد يعرفها.

عبد الباقي جبل الحديد - يا للمهزلة - يتحكم في كل شيء بدءاً بالسياسة فالإقتصاد والتدريبات العسكرية، لذلك أدار اللقدين عقدين من الزمان، كان طيلة المدة يخدر أهل اللقدين بقصص خرافية، يجدد مواهبه، يبعد المحرمات، ويعيش اللذة، وهدفه إسعاد الجميع. وها هم الناس قد ملوا منه صاروا منهكي القوة، خابت آمالهم في إصلاح سريع، وعبد الباقي جبل الحديد وبطانته مارسوا قسوتهم، قلوبهم المتحجرة، مشاعرهم الصلدة.

زینب بلال قالت: کلهم خونة! وفجأة تذکرت أيام مجدها الأولى
وطیورها ترفرف فی الفضاء المفتوح، ترفع نهديها الکبيرین لقد فقد
عبدالباقي جبل الحديد صوابه.

لقد عثروا على الكاتب العمومي مقتولاً ورأسه مفصلاً عن جسده.. امتنع مسعود الباهت عن القول، الشرطة لم تضيع وقتها سدى في البحث عن الجناة، من يقرأ دفتر اللقدين هذه الأيام يرى التمويه والإستمساك بالمزايا الخارقة، وتحويل الأنظار بفلم البؤساء وإشغال الناس حتى يخرج المشهد أكثر إقناعاً.

في تلك الأزمنة شُيِّدَ أكبر برج في اللقدين مليء بالأثاث المستورد من إيطاليا وفرنسا، وبالعصافير الملونة واللبغاوات وطير الكناري وطيور العنديل، وبأنواع من الأسماك وأحواض السباحة.

محمود بلة زوج ابنة زينب بلال. صار يقرأ الكف ويخط الرمل ويتنبأ بما سيحل باللقدين، مزاعمه دائماً ما تتحقق، أنفه الحساس ونظره الثاقب، انبهر به الناس تنبأ بأشياء كثيرة وقد حدثت. هدده عبد الباقي جبل الحديد في أن يوقف تنبؤاته السوداء التي أخافت أهل اللقدين، وأمره بتلاوة القرآن وأن يحبس طيوره ونفحاته التي يرسلها بنبرات مؤثرة. انفعل الناس بسحر محمود البلة، اغرورقت الدموع في مآقيهم، مصطفى أخرج من جيبه رسالة مهترئة قال إنها جزء من كنز لا يعرف مكانه. دفنه جده في مكان ما. هكذا أخبره والده. قدم الرسالة لمحمود بلة. قرأ محمود الرسالة المشفرة، قال إن كبير الولاية سيعزل من منصبه، وأن شخصاً كبيراً سيموت، وستخلق وظائف كبيرة جديدة، وستقسم الثروات، عرف الإشارات وأصيب بوجع الرأس، محمود بلة

بخوارقه المتعددة صار حديث الناس، مواقيته المضبوطة، أجواؤه
المستقيمة وخطوطه التي لا يطالها الوهم. وانهالت عليه الدعوات،
وَزَعَ التبريكات وامتلاً بالمال، أطلق لحيته حاملاً هموم اللقدين كلها
في رأسه.

عبدالباقي جبل الحديد خارج الحلقة، تعطل تصوير الفيلم. رياح
عبدالباقي الجنونية علقت كل شيء باللقدين، زوجته تزيل اضطراباتها
بنزع شعرها النابت، اسودّت هالة حول عينيها. صارت تلبس ملابس
فضفاضة تخفي توترها، تحدث عبدالباقي عن دخولها منطقة اللاتيين.
وأن هذا هو السكون الذي يسبق العاصفة.

زينب بلال تنبأت بالطوفان، الغرق ذلك الذي لن يفرز أحداً. دموع
التماسيح ذرفها البعض، الحيرة تملك زينب بلال، سنصمد قال
عبدالباقي جبل الحديد. وذهب القوم في شتى التأويلات.

التعبئة الداخلية، لنبعد الإنتقام والقمع والشار والشرور. بدور لكي
تخفف قلق زينب بلال صارت تحكي لها الحكايات عن محمود البلة
وطلحة الشريف وعن رسائل الحب والتآخي. أيام المرحلة العفوية
والوقائع في صيرورتها مألئ بالمفاجآت. النضال ليس لعبة وعبدالباقي
جبل الحديد حبه الطبيعة بظروف تاريخية ولكنه لم يستغلها. زينب
بلال تتقيأ سحالي وعقارب وثعابين. خلعت ضرسها أخيراً وصارت
تحلم بالمقابر والأرواح الشاردة، مريضة هي، تحطمت ليايها على

صخرة الواقع، حشرات ليلية تهجم عليها، يعطونها أقراص البندول، وتنقب في أشياءها. لا تكف عن الحديث، تنبش ذاكرتها كأنما تولد من جديد. لن تموت أنها تنتهز الفرص. كبحت قلقها بمحركات الحنان وبعناية فائقة من ابنتها مرت إلى مرحلة النقاهاة، الحياة العاطفية ذاك ما حرّك أشياءها، وتقاربها مع حفيدها حميد وبدور زوجة ابنتها جعل دموعها تطهرها، تواطؤها وغرابة تصرفاتها، بدأ الأنين وجعلها تجذب حولها أبناء بناتها العديدين كفراشات حدّقت فيهم الواحد تلو الآخر خشية النسيان. استعادت زينب بلال قليلاً من حيويتها الغابرة وتحمرت من ثقل السنوات، ومع ذلك ما زال دهاؤها بكرةً، وضحكها الصفراء تشع على ما اختزنته في صدرها من شرور.

تذكرت زوجها الغابر، أشياء عديدة يوم أن كانت غارقة في الحب، إعجابها به، بجسده الأفريقي الفاره وتلين المواقف، تخصمهم معاً والصراعات القديمة، يغمز لها فتضحك وتمتلئ بالرضاء.

عندما هبط عبدالباقي جبل الحديد باللقدين قبل عقدين من الزمان شتم سلفه بالقبح والغباء وكثرة الحديث وأصيب بخيبة أمل لما صارت إليه الأمور.

وفي أثناء تجواله في ربوع اللقدين وعد الناس خيراً. ومنّاهم بالإعتماد على النفس. المشهد الكئيب لا زال كما هو والحيل العديدة لم تجعل جبل الحديد ينفذ خطته في الزراعة والصناعة وشق الطرق.

وإن كان هَدَأَ النفوس بزراعة الحدائق، ورفع هممهم بالجهاد والدفاع عن الحياة المنضبطة. كثر الشهداء في الحروب التي لا تهدأ، وعندما توقفت الحرب لم يقطف الشعب زبدة السلام، فقد الناس شهيتهم، أشفق الحادبون على تردي الأخلاق. الضربات الموجعة التي أرسلها الخصوم قللت التهنيدات وصارت اللقدين تنام على القلق، انحدرت الطباع الجميلة. البطانة المحيطة أقنعت الناس بسذاجتها، ومن البديهي أن الإنتهازيين وذوي المصالح الخاصة تمددت حظوظهم، مسرور عديم الحياء لا زال منتفخاً كالبالون مملوءاً بالهواء يتأرجح في قلقه، طيوره المجنونة نزواته التي لا تحد، إحساسه المتراخي، غرق في مهازل صديقه عابدين ابو الذي يصبص على النساء، مازال غارقاً في مغامراته مع الفتيات الصغيرات، في مرة وُجِدَ مع سكرتيرة المدير في سيارته، ولتفادي الفضيحة فصل من عمله. أدركت ملكة وهي تسدل جفونها أنه لا رجاء منه.

واستمرت جثث الشهداء تأتي من الجنوب والشرق والغرب معاً. البيوت كلها في اللقدين قدمت ضريبة الوطن، زوجات ثكلى وأطفال يتامى.

زينب بلال تهذي وهي غارقة في سنها العجوز، تتشبث في أرضها السبخة، أرياش جسدها تتصاعد. تود أن تقاسمها بدور الأحاديث عن تقاليد العائلة وانخفاض نسبة المواليد، رغم أن مياه أولادها لا تفتقر

إلى العذوبة وهي تعرف كيف تسبح في التيار. التباهي وتوطيد عزيمتها جعلها تفشي العادات الذميمة الحسد العين، وتتجمد فضاءاتها من الذهول، عندما تكبح جماح فوران مسعود الباهت تشعر بدور بالخوف، وها هي زينب بلال تؤدي فروضها، تضيق عينها وتتحدث عن القيامة، تتحفز أحاسيسها، تغير فرش المنزل، عالمها المجنون. تردد الأغنيات الهابطة، تنيم أطفال بناتها، تزيل منهم النحس بمسحهم بزيت السمسم، تحاول أن تخلق جواً من الحنان. توقفت أمطارها عن الهطول، أقصى ما يسعدها أن تقص على أحفادها الحكايات وتتجنب قصص أصولها الوضيعة.

يا للفضاعة لمخالفة مصطفى لها، لن ينعم بالنوم هائناً ولديها من الأساليب ما يجعله يعيش في شقاء دائم، ردود فعلها المفاجئة لا أحد يعرفها.

اشتكى الناس من سوء إدارة عبدالباقي جبل الحديد، كثير من الثقوب أوجدها وأعاد أفكاراً بالية وها هو يبحث عن المقاومة، لا أحد يعرف تفكيره المذهل وخاصة طباعه وثوابته.

حميد على غرار أبيه مسعود الباهت صار يقرأ كتب التاريخ. نفثات اليراع، ومذكرات العظماء. أيقن أن الأحداث لا تحتاج لبراهين، واختلط الحابل بالنابل في أيام اللقدين التعسة.

عرف في قرارة نفسه أن أيام عبد الباقي جبل الحديد في طريقها للإنتهاء، حيث لم يجد التمويه نفعه، وأن الوقت قد حان لتنتهي كل الألعاب البهلوانية.

نعيم الأجواد، طه الأبيض، طلحة الشريف بكل الجهد الهائل الذي بذلوه إلا أنهم اختلط عليهم الأمر وتشابكت الخيوط، يعرفون بغريزتهم أن ثقباً في الجدار قد حصل. وأن هناك فارقاً كبيراً بين العجز والحديث عن التضامن المفقود.

البنات صرن يلبسن كالفتيان، والأولاد صاروا يتنكرون في زي البنات وانقلبت الأدوار. هل من مخرج إن استمر الحال كما هو. لقد سيطر الرعب على الناس سُدت كل الأبواب. عبد الباقي جبل الحديد أدرك فساد النظريات وأن لا وقت للمناورة، الوعود تراكمت، هل يجدي فتح النوافذ حتى يستمتع بفراشه الوثير وقلبه الشجي الذي يحدثه بالوقوف بصلاية متمرساً بحائط مشروخ. تزوج المسؤولون مشى وثلاث ورباع، ووسعوا في المنازل وسهلوا للناس الزواج الجماعي، ولكن الأغلبية تنتظر القصاص. لا بد أن يسترد الناس عزتهم وأنفتهم، صحيح أنهم هادئون. لكن من يضمن استمرار هدوئهم الى الأبد.

الهول وشيك، وعبد الباقي جبل الحديد وضع كثيراً من القنابل التي تنتظر التفجير، ووسط هذه الأجواء اختفى كثير من النافذين وهرب آخرون. لم يمتعض عبد الباقي جبل الحديد سوى لضحكات زينب

بلال بجسدها الضخم ونهديها مثل رافعة، لقد أربكته للأسف في أنه لم يحشرها في زاوية ضيقة.

الطريفي مسؤول الإعلام في اللقدين لم يعرف الخطر المحقق، راح يرتق أجهزته ويصب اللعنات على خصومه، صدّقه الناس، إننا سنهزمهم. واستعادة أمجاد الأمة وربطها بجذورها، نبهه عبد الباقي جبل الحديد إلى تبني خطة تأصيلية دون أن يدخل في التفاصيل، والطريفي قال أحاديث كشجرة العشر تراها نضرة مشبعة بالرواء ولكن ثمرها يعمي. الطريفي قال إننا (كشدر الحراز) لا نلتفت للمطر ونسخر من المياه المتساقطة حولنا، جفت شفاه الطريفي انتفخت أوداجه وصار مثالا للتندر، تضخيمه للأحداث بصيغ ترضي نفسه.

اللقدين موعودة بالعواصف والأعاصير الكبرى. أفاق عبد الباقي جبل الحديد على صوت ضجة قوات مجهولة تقتحم أطراف اللقدين، نعيم الأجواد تصدى للأمر. هربت طيور زينب بلال، لقد تنبأ طه الأبيض بتلك الأحداث. مسعود الباهت في غرفة نومه تشاجر مع زوجته المتحمسة للتدخل الأجنبي، الأحداث تتسارع، أجهزة الطريفي تردد الأناشيد الحماسية تشجع الناس على المقاومة، زينب بلال أحست بمذاق الدم في فمها، وراحت دون انقطاع تردد بصوت جهير إنها القيامة، النسوة تحفرن وصرن يزغردن لحث الرجال على الحرب،

قنابل وألغام وراجمات، احتاج الناس لثلاثة أيام لاستعادة وعيهم بالكارثة.

اختفى نعيم الأجواد، طه الأبيض وعبدالباقي جبل الحديد. تدهورت المعنويات، الطريفي يشجع طلحة الشريف لتصوير الإحتراق من موقع إستراتيجي. راح طلحة الشريف يزيل سأمه بتصوير البؤساء في لحظاته الأخيرة، جحافل تتقهقر، قادة يختفون، لا يدري الناس أين اندسوا، البهلوانيون، الانتهازيون، توقفت طواحين الهواء وحن الناس للعودة للشجن القديم.

اختفت الأدوية التي تعالج أمراض العشق، وتلك التي تدعم الشجاعة، والأقراص المزيلة لتجاعيد الحزن، قلت الجسارة، وراحت الأقاويل تتسلق الأسوار، الأحاديث كخيوط العنكبوت..

أحبّطت اللقدين وامتلأت الدروب بالروائح النتنة، رفض الناس الخروج من منازلهم خوف قناص مختبئ هنا أو هناك.

أحبّطَ عبدالباقي جبل الحديد المؤامرة وقبض على كثير من الناس في جوٍّ من التوتر.. لقد انتهى عهد الخوارق وها نحن بإيماننا العميق قد انتصرنا على الدخلاء. واصل مخرج الفيلم طلحة الشريف ترميم المكان وأبعد العربات المحترقة وأصلح واجهات المحلات الزجاجية، مسح وجوه الممثلين بالكريمات وأضحى كل شيء جديداً، استطاع

إزالة الخراب الذي علا اللقدين وهكذا تجدد كل شيء في اللقدين، نهض المندسون تحت الأسرة واستيقظ النيام.

بعض المحسوين على النظام احتلوا الواجهات، واختفت المظاهر العسكرية من جنود متوترين وأسلحة على السيارات التي تولول في الشوارع، أقيمت المظاهرات المؤيدة لجبل الحديد. مواكب تلاميذ المدارس، اللافتات تدين الخونة والعملاء، القنوات الفضائية ترسل مصوريها.

قال الطريفي إنهم غَوَّاصُونَ يرسلون تقاريرهم لجهات خارجية. في لحظات صوروا الكارثة من كل جوانبها، وبدأ جبل الحديد ممسكاً بزمام الأمر بحزم.

لم تفش كل الأسرار التي عرفت عن الكارثة، وجدت كثير من الجثث هنا، وهناك من أثبت تورطهم.

وفي الأيام التالية سارت الحياة عادية في اللقدين وإن كانت بصورة متباطئة، نصح المستشارون جبل الحديد الذي أضحى يسمع كلامهم، ألا يعود للمربع الأول وأن يواصل تمسكه بالثوابت، وبعض بالنواجذ على المكتسبات.

زينب بلال تأثرت بما حدث، وإن كانت سحاليها المرئية حزنت أنهم لم يستطيعوا أن يزيحوا هؤلاء الأوغاد. بدور انطلقت تمارس

عاداتها القديمة، تلمع الزجاج وتنظف الحديقة وتعد المؤون لساعات ضيق آتية، تربي الحمام وتضع الإستراتيجيات للنضال القادم.

فاطمة تنسق كل شيء، وتقول ليتكاتف الرجال مع النساء. تستلهم من أحداث التاريخ الغابرة، وما سقوط الإمبراطوريات إلا بفعل النساء. الرجال القادة هم المنقذون والشعوب البائسة ترضى بالعبودية والقمع وقطع الرؤوس. الإستبداد يزيل الأنظمة والنساء أكثر جرأة في الحروب كما في الحب والسياسة.

فطومة تغسل الأطفال وتسقي الزهور وتُموّه بضبط الساعات في مواعيدها. زينب بلال قررت أن توصل كلماتها، لبست أجمل الثياب، (تبلمت).. تسللت دون أن يلحظها أحد ذهبت لجبل الحديد، حاولت أن لا يمنعها الحارس، جبل الحديد هَدَّه الحزن على زوجته الأولى موتها في الأحداث زلزل كيانه. رأى زينب بلال، عبس وجهه، قال لها: لنضع الحرب بيننا، وبلين امتص أعاصيرها وغضبها الصاحب، جبل الحديد يتفادى التوتر يخاف على غدته من أن يفجرها الغضب. المال وسأعطيك له أما السلطة فلا، وافقت زينب بلال أن توقف شرورها، سويت المشكلة، إلا أن دورات بناتها الشهرية لا زلت واقفة.

مسعود الباهت حاول أن يعدل قوانين الفيزياء، وتنكر مسرور عديم الحياء لكل اتفاقاته، حميد يلعب الورق ويراهن على فوز جديد ويمني

النفس أن يستفيد من مهاراته طلحة الشريف ليصبح ممثلاً في البؤساء.
الشعب يريد الإضطهاد لذلك يمارسه الحكام ضدهم. المقاومة ذلك
ما يحرر الناس.

أنت يؤلمك تبديد الأموال وذهاب المبادئ. متى يعيش أهل
اللقدين سعداء؟ لن يعيشوا ما دام الإنتهازيون يتمسكون بامتيازاتهم،
ويجدون متعة في التبذير، في حين أنهم يدفعون الناس للتقشف والزهد
والموت في الدفاع عنهم. مسرور عديم الحياء يحاول أن يوقف
التصوير وإرجاع الطيور إلى أعشاشها والتماسيح الى الأنهار، يفتقر إلى
الحكمة، وإلى إعادة الطمث إلى أخواته البنات، متى يفوق مسعود
لرشده، الشعب يعرف القضية رغم تكاثر الرسوم والجبايات عليه.

ودخلت اللقدين في زمن المفاوضات والمبعوثين الخاصين، سودوا
عشرات الكيلوغرامات من الورق والوثائق، سكب كثير من الحبر
والجهد، مفاوضات إلى ما لا نهاية، ناقشوا الخوارق والغيبيات،
المراقبون تملكهم الحيرة، فقدوا حماسهم.

وأخيراً تقرر أن يرحل عبدالباقي جبل الحديد، وفي حفل وداعه
الأخير لم يغفر الناس له ولم ينسوا هفواته وقسوته، تزييا كمهرج ملوحاً
بيده.

اللقدين أصابها الصمت وهي المولعة بالضجيج، وسرعان ما عاد
الناس لحياتهم العادية استقبلوا خلفه بالتفاؤل.

عبدالله القرين أرجع القرارات الملغاة وألغى قرارات سابقة. قسم العائدات على الشعب، تحول قصر جبل الحديد إلى ملجأ للأطفال اللقطاء الذين كثر عددهم، الحرية ذلك شعار عبدالله القرين. زوجة جبل الحديد آثرت أن تسكن جوار أختها من الرضاعة زينب بلال. ترهلت بدور، سمنها الأكل الشره صارت لا تقوم إلا بمساعدة ملكة.

عابدين ابو تزوج بالسر، زينب بلال ثقلت خطواتها، عبدالله القرين بمكره ودهائه استطاع أن يفك شفرات زينب بلال، عرف مداراتها وعلاقاتها بالسحرة والمشعوذين وأصلها المائل، هي من صيرت سلفه للمأساة، وعندما تستعيد ذكرى أيام اللقدين بين الفينة والأخرى، ترى من زرعو الفتن، وأطلقوا الفراشات الملونة في سمائها. الحياة في اللقدين أضحت صعبة والطقس يسير للأسوأ كأن العالم كله سطح مرايا.

زينب بلال لم تأسف على شيء، تزوجت زوجها البسيط وأنجبت منه ثلاثة عشر ابناً، وأختها الزهرة تزوجت ابن العامل الذي صيرته الظروف حاكماً، هدوئه وصلاته، خشوعه وتمرده، ثورته وانفعالاته هي من أوصله لكروسي الجنون، تذبذباته وتغيره بين ليلة وضحاها، أيامها كان بسيطاً يأكل القراصة ويحب السمك المشوي.

لا زال عبد الباقي يرى أنه أعجوبة وأن أنفه تشتم الأحداث قبل وقوعها. أما والد زينب بلال فقد كان تاجراً يبيع الأقمشة ويهرب الأسلحة والمخدرات والذهب، ولديه عدد من الخياطين الشاطرين وكان يشرف على عدة مخازن، يتاجر بين اللقدين وأثيوبيا، أحد أبنائه كان لعباً يعاكس النساء ويشرب سراً. زينب بلال أوقفت تهورها مما جعلها تحتفظ ببعض الورثة من الهالك. كانت لها نزواتها أيام تفتق الشباب الأولى، كادت أن تنزلق وهي تطارح الغرام فتاها، وفجأة أدركت خطأها ولكي تزيل مخاوفها أحبت زوجها واستطاعت أن تتعايش معه، وامتألت بالأطفال، صاروا كزهرات عباد الشمس يميلون حيثما مالت، لا بد من شحنهم في باقات من الشرور والشجن لكي تنتظم أمورهم وتوقف جذوتها الجنونية وشبقها وإن كان يثقلها الحزن لترك الحبيب الأول، حيث تشعر أن رجلاً واحداً لا يكفيها، يا لثقل الحياة، كان يعصرها ويغرس أشياءه في نافذتها حتى تفقد طلاقة حديثها عفرتها وعنفها.

يا لزمان الرجال الذين يقدرون الأنوثة الضخمة حيث رعت المقدمة
والمؤخرة بالعناية والتغذية، وبعد كل هذه السنوات يتلاشى خجلها
وتتذكر أيام الخجل والحياء والتلعثم وتركيبها للأدوية التي تسهل ما
يمكن أن يجعلها خجلة، تلك أيام للحب مضت.

ومسرور عديم الحياء في يوم جنازة أمه زرع طقوساً للحديث عن
مزاياها، والكلام عن سجاياها. هذه الأم المقدسة ورغبتها في زرع
الخير وجمعها لأفراد أسرتها في منزل واحد، سقتهم المياه المقدسة،
ثلاث عشرة دمعة أنبتهم في أرض سبخة وحوّمت حولهم تعاويد
بدائية، بخرتهم بعصير الورد ومزجته بأمشاج الحب مع خل وخردل
وقليل من عسل النحل محفوظة منذ قرون، مما جعل شبق النبات
للدكور يزداد ويعرفن فحولتهم المتبدلة ويهربن من مسؤوليتهن بعدم
الأكل أو المشاركة فيه. ينزوين وهن القادرات على المص.

في ذلك الوقت علمتهن العشق، التحايل والحنان والإحتيال والود
والإستهزاء والمراوغة والغش والخداع الذي صار ديدنهن في الحياة.
مصطفى اليتيم رماه حظه العاثر في طريقهن محاولاً التخلص من
برائتهن اعتبر أطفاله في ملجأ.

كلتوم كانت لها مراهقة مزعجة؛ تطارد الشباب في وضح النهار،
تلجأ لحيل متعددة لترميمهم في شباكها، اختلف الوضع بعد زواجها،
وصارت تكره التعهر في الطرق العامة.

لم تقبض زينب بلال إحداهن متلبسة بالجرم المشهود، حيث إنهن يقمن الدنيا ويقعدنها أنهن شريفات، بنات زينب بلال المراوغات المتحايلات. وقفن مع مسعود الباهت لاحقاً عندما أغوى بدور ذات الجذور من غرب أفريقيا، طموحه وجشعه جعله ينتهي بالزواج منها، باستثناء ضعفه وعدم نزاهته وكذبه وأساؤه، لم يقرأ طبقات ود ضيف الله ولا نفثات اليراع لمحمد عبدالرحيم.

ثلاثة قرون والكتابات تؤرخ لما هو حاصل ومسعود الباهت فقد حيله وخوارقه وصار باندهاش يبحث عن الطمأنينة وتلك اللغة المبهمة. استأنف أفاعيله في زرع الفتن كأمه تماماً ويتحدث مع أناس مجهولين متذكراً أصوله الوضيعة واستفساراته التي تضحك الأطفال.

مسرور عديم الحياء قال لحميد: الأفضل أن تتصرف كالرجال وتسير في خط مستقيم وصارم ليفض بك ذلك إلى موقع أنت أهل له. حميد ليس في حاجة أن يفتخر بعائلته ذات الجذور من المهريين و(الهمبارة) حيث كانوا مثاراً للسخرية. وها هو بتعاقب الأجيال وبغريزة ثابتة يود أن يدخل الأصول الوضيعة في متاهات ويقلب الجذور لواقعية عقلانية، إزاء هذا الوضع.

عَلِمَتْ زينب بلال ضياع الوقت والخوف من عدم امتلاك القدرة. والتاريخ المليء بالغموض والخيانات والمضايقات والمكائد؛ لتلك الأسباب كانت اللقدين تنتهك المحرمات وحظها السيئ رماها في

خطى عبد الباقي جبل الحديد الذي لم يشأ أن يطرح الأسئلة وعاد وكأنه لم يتعلم شيئاً. لتنظم الجماهير في هذه البلدة المعوجة والحارقة، اهتزازاته السحرية والمأساوية يجب إعادة صياغتها، لقد انتهى عهد الخوارق والهديانات، الجميع يريد الديمقراطية.

مسرور عديم الحياء لديه بصيص أمل في أن تتعدل الأمور وتعود لسابق عهدها، ننتهي من الحلقة الجهنمية، استبداد وأحكام طفولية عديمة الجدوى، مسرور صار حذراً في أيام الأزمنة الصعبة، عرف كيف يعالج تناقضاته وإن كان أهل اللقدين عرفوا تناقضاته، وعرفوا الأزمات والمجاعات والفيضانات والأوبئة.

زينب بلال ظلت متيقظة وحذرة وترغب في تقديم المساعدة وتلملم بناتها الغيبات، كما في الأزمنة الأولى تضيء فناء الحوش وتجعل من الطقوس كنوزاً، تدفع الناس للعمل وأن لا يصطدموا بالسراب للمرة الألف.

لقد استتب الوضع الجديد ورجع الناس لأعمالهم، أطمأنوا أن اللقدين نفضت عن نفسها رداء الكسل وبسرعة فائقة تناسل الناس واحتموا بدفء زوجاتهم وحنانهن.

خيوط ذاكرتك بدأت تتخيل السر الذي احتفظت به من والدك. خيم الإنتظار، هل تأكدت من ضلوع زينب بلال في دس الكتاب

الذي ورثه والدك من أبيه، تحرك لا تخشى شيئاً لقد حان الوقت،
تخلص من ترددك.

مسعود الباهت، شغفه سماع الموسيقى، زينب بلال مشغولة مع
أختها الزهرة، أخرج المخطوط لترى ما فيه من تنبؤات، سوف تغمر
السعادة الجميع.

صحيح أن زينب بلال اجتمعت مع أختها مما أفلت الرقابة من
حميد الذي ازداد فسقه. محمود بن عابدين ابو جامعاً كل حقارات
عائلة عديمة الحياء راسخة في اللقدين بدأت سفنه تجدف وترفع
بيارقها.

الأوراق تكشف الأهوال القادمة، محمود يبلغ في المحارم لا بد من
إبعاده، وزينب بلال تعيش أيام عظمتها الزائفة، أسلافها المهربون
عديمو الأصل، وأبناء بناتها الستة والعشرون الذين يتناسلون إلى ما لا
نهاية. يحملون الشر وأهوال من الأرق ومازق من الربو والضغط
والقرحة وألم المصران.

أما عن بناتها بلا إستثناء فقد عرفن كيف يرقصن للحياة بظلمات
الخوف، ويلوثن المفارش بدم الطمث، يداعبن حشائشهن ولا يتورعن
في ارتكاب المحرمات. أيام كانت تأتيهن الدورة مرتين في الشهر،
غارقات في أمواج الهوى، زينب بلال بغريزتها حولت حياتهم المنحرفة
إلى مصير رائع.

امتد الزمن لفراغ، استمر أجيالا متعاقبة، وها هي فراغات عقود من الخجل والسلب والاستلاب والتفتت تحتاج لصراخ العالم حتى تسد الشغرات.

عبدالله القرين، الحاكم الجديد للقدنين كرس مواهب عمره واختزن الأحاسيس التنجيمية وأدى الواجب في محاربة السحر والخرافة والمعتقدات الغيبية الراسخة.

عرف من تقديره الإستقرائي المزيّف من الحقيقي، وكيف يعطي تفسيرات وحجج على هوية اللقدين البعيدة عن التشكك.

صارت تجذبه ضحكات الأطفال، ويغض الطرف عن المنعطفات ويخترع الحيل، لقد خرج من مآزق عبدالباقي جبل الحديد التي كان يضحكها بانفعالاته، مما قضى على القلق وازدادت خيرات اللقدين؛ منع المهربين وأوقف الإنتهازين، ولديه الأجوبة الصحيحة لكافة أسئلة اللقدين. بدد هواجسهم ومنع الإشاعات، أعاد النظام، وزعزع النظريات اللاواقعية. فتح للناس أبواب الأفراح والمسرات بصورة تدريجية، أوقف الإتهامات بالزندقة وبإهدار دم المخالفين، واستعادت اللقدين نشاطها وحيويتها السابقة.

بدور كطلبل لم تكن مستاءة وهي تتحدث عن حياتها الجديدة ونقص قرائحها على رغم من أنها حامل، فاطمة ترفه عليها عرفت بدور آل زينب بلال في آخر أيامها، تفاهماتهم وشذوذهم وخوارقهم

الإستبصارية، أعمال السحر، خيبتهم وفشلهم وانتصاراتهم، هزائمهم
وصراعاتهم، وولعهم بالشرور. كأن لعنة تجري في دمائهم. كانت بدور
تقول لفاطمة دعينا من هذه الحكاوي، لا شيء يستحق الذكر ويمنع
عنا أيام الشحوب هذه والسأم.

اقترحت فاطمة أن تتقاسم عابدين مع ملكة، ولمسايرة الحنان
لم تعد تخوض معها في خيالها الجارف.

مسعود صار يتعذب بالشك من وضع زوجته، وبعد أزمان من
دفن مسرور عديم الحياء لوالدته يتذكر أيامها السعيدة وتربيتها أبناءها
وأحفادها العديدين واهتمامها بالزراعة والسهر على طيورها، حيث أنها
لا تهتم بالمسائل الدينية.

قرر مسرور أن يحج عنها خوف غضب عبدالله القرين النهائي
عليها، ودفع للمصلين في المساجد أن يدعو لها.

قرر عبدالله القرين إقامة مسرح كبير في الهواء الطلق، أهل
اللقدين يعتبرون أنفسهم أكبر ممثلين في العالم، المأساة، خلطهم
الجد بالهزل.

وعدهم عبدالله القرين بأن الرخاء سيعم قريباً. لكن ماذا نعمل
بالأنذال لا يكفي أن ترسلهم للصالح العام، وإنما لا بد أن لا نعيد أيام
السعار والكوابيس والأفكار العارية. لا بد أن نزرع أصيص الليل
بالحنين، نمنع الإحتيال والسلب، وإلا سوف نكون كسلفنا عبد الباقي

جبل الحديد، لا يجب ترك كل شيء للصدفة. عندما كانت الرياح تهب على أشجار النيم الباذخة على شارع النيل، ويكسو الغبار أوراقها، وطيور الزراير تختبئ في أعشاشها، واللقدين تعيد أيام الحنين الأولى، وبنات زينب بلال يعزفن على أوتار الخلود، انزاحت الكوارث والمجاعات والتهديدات والمذابح.

انتهى عبدالله القرين بتمتين المحاور والمساند وضبط اللولاب، عيناه الصغيرتان كعيني جرد، من العبث إضاعة نقطة دم واحدة من الشعب هكذا قال.

وبضربة لازب أرخ لسلالته بإدخالها التاريخ خوفاً من الإنقراض. وتتعاقب الأيام على اللقدين إلى ما لا نهاية، من حوصلات الذاكرة مسترشداً عبدالله القرين بدلائل متعقباً آثار الأجداد قاد مسيرة اللقدين، استعان بمسرور عديم الحياء منتظراً خوارقه مانعاً هيجاناته وعواطفه المشلولة.

بدور ولدت خمسة توائم دفعة واحدة من نسل زينب بلال الشرير، توقفت الساعات الجدارية، وأوقفت البنات شجاراتهن وذهبن لرؤية التوائم الخمسة، رقصت الزهرة في وسط حمى الهذيان الجماعي، وخرج محمود البو من دوامته، فجر شظاياها مستعيداً في انتعاش ثقافته وحنان زينب بلال وزوابعها، مسعود هو الآخر أدرك فجأة أنه صار أباً لتسعة من الأطفال وغرق في همومه المبتورة وتهويماته غير

المرئية مستعداً لإنجاب دسطة أخرى من الأطفال حتى لا يهتز التوازن الداخلي لسلالة زينب بلال. قرر توسيع البيت والإنتهاء من الإحتفال بالتوائم الخمسة، وتعليمهم الحكمة والإستفادة من صلافة زينب بلال وخبرتها الطويلة في كبح الدموع والوعي الزائف والأحاديث المتسخة وتنظيف الأثاث وترتيبه.

مسرور عديم الحياء أصابه حزن شديد لم يتغلب على الموت وعبر القرون عايش مسيرة عائلته الغريبة وما تختلج به نفوس الفتية الغارقين في التيه وسوء التقدير، ضَحَّ ذهنه وكاد ينفجر وهو ممتلىء بالغرابة، زينب بلال سكنها الندم إلى آخر يوم في حياتها.

الحزن والحيرة حيث لم تنفعها الحيل والخوازيق ولا طرقها في تربية الطيور وإطعام صغار الضأن ولا سيرها في المنعطفات الحادة وحتى إرسال الإشارات الغرامية.

لم تكن لديك حيلة لمعرفة مكان الدفتر الذي تركه جدك، والدك ظهر لك في المنام وقادك من الصحراء إلى نافذة ثم بات ليلة كاملة قص لك فيها الحكايات المريرة عبر الأزمنة.

الإشراقات التي تَكُونَت كشرارة شيئاً فشيئاً، داهمك النعاس، الحديث صار همساً، وما بين نخلة زينب بلال وشجرة النيم أدركت الرؤية، صرت تنبش حتى بلغ منك الجهد مبلغاً وفي (شنطة الحديد) وجدت القماش الأخضر والكتاب يتوسطه. الواقع أن كل الأحداث

المكتوبة سابقاً خُطَّتْ بـخَطِّ جميل في الدفتر المُذَهَّب، وكالحلم مرَّت
سنوات الحرمان والضجيج. ساكناً صرت، لمحت مسرور عديم
الحياء، نظرت المنكرة، تردده للحظات، كل التفاهات والهديانات
اللزجة مصيرها التلاشي.

الشاهد أن مسعود الباهت ذرف دمعة وكان حضوراً محمود البلة،
عبدالله القرين، طلحة الشريف، حميد بن مسعود الباهت محمود البو.

السامراب ديسمبر 2006م